

الفردوس الأعلى

المكتبة
الأعلى
للإسلام



المشروع القومي للترجمة



تأليف

عبد الحليم شرر الهندي

ترجمة

جلال السعيد

تقديم ومراجعة

سمير عبد الحميد

المشروع القومي للترجمة

الفردوس الأعلى

تأليف

عبد الحليم شرر الهندي

ترجمة

جلال السعيد الحفناوي

تقديم ومراجعة

سمير عبد الحميد إبراهيم



تقديم

يمتد نسب الأديب عبد الحليم شرر مؤلف رواية الفريوس الأعلى (فريوس برين) إلى الأسرة العباسية ؛ فقد هاجر أجداده من جزيرة العرب إلى العراق ومنها إلى هراة ، ثم نزحوا إلى الهند في عهد السلطان محمد تغلق ، واشتهرت الأسرة بمشايخها وعلمائها ، وكان «نظام الدين» الجد الأكبر لعبد الحليم شرر قد استقر في لكهنؤ ؛ حيث ولد عبد الحليم شرر لأب عرف بمكانته بين العلماء ، وإجادته للعربية والفارسية ، وقد عمل والده موظفًا في بلاد السلطان "واجد على شاه" آخر ملوك المغول في "أوده" ، أما عبد الحليم شرر نفسه ؛ فقد ولد في إحدى القرى التابعة للكهنؤ في جمادى الثانى سنة ١٢٧٥ هجرية/يناير ١٨٦٠م ، تعلم في صغره على يد شقيق جده لأمه وكان من أساتذة العربية والفارسية ، ثم استدعاه أبوه إلى كلكتا ؛ حيث كان يعمل هناك ، وذلك سنة ١٨٦٧م ؛ فأكمل شرر تعليمه هناك ؛ حيث حفظ القرآن الكريم ودرس الفارسية والأردية ، وأعادته أبوه إلى لكهنؤ سنة ١٨٧٧م ، لكنه ارتحل إلى دهلى سنة ١٨٧٩م حيث التقى ببعض العلماء ، وبدأ ترجمة كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب فكانت هذه هي الأولى لشرر في عالم الكتابة ، ثم بدأ في كتابة مقالات أدبية وعلمية في الصحف أثرت في القراء ، وترجم "الروح" لابن القيم ونشر الترجمة في

سلسلة من المقالات بهذا العنوان ، وقد أعجب سيد أحمد خان بهذه المقالات واقتبس منها .

سافر عبد الحليم شرر إلى إنجلترا حيث أقام أكثر من سنة ونصف ، أتقن خلالها الإنجليزية كما درس اللغة الفرنسية وترجم عنها إلى الأردية ورجع سنة ١٨٩٦م ، وأصيب بمرض شديد أقعده من سنة ١٩٠٤م حتى سنة ١٩٠٧م ، وتوفي في جمادى الثانى سنة ١٣٤٥هـ / ديسمبر ١٩٢٦م.

ورث عبد الحليم شرر عن أجداده حب العلم والزهد واحترام الناس ، وكان متسامحاً غير متعصب ، نادى بضرورة تعليم المرأة ومشاركتها في نشاطات المجتمع .

نال عبد الحليم شرر مكانة بين أدباء أواخر ق ١٩م وأوائل ق ٢٠م ممن أفاقوا الأدب الأردى عن طريق تقديم أنماط الأدب الغربى وأساليبه الفنية ، ويرجع سبب شهرته أساساً إلى رواياته التاريخية ، رغم تنوع مواهبه وتعدد مجالات كتاباته ؛ فقد نشر على الأقل خمسين رواية ومسرحية ، بعضها مترجم ، أما مقالاته فقد نشر في ثمانية مجلدات ، ونشر شعراً حراً لأول مرة في الأدب الأردى ، كما عرض اتجاهات الشعر الحديث في الأدبى الإنجليزى على أدباء الأردية ، وألف كتباً في السيرة والتاريخ ، وأصدر وشارك في إصدار عدد من المجلات والصحف .

يرى بعض النقاد أن رواياته تفتقد إلى الحبكة ، ورسم الشخصيات ، إلا أن روايته "فريوس برين" أو "الفريوس الأعلى" التى ترجمها إلى العربية الدكتور جلال السعيد الحفناوى هى الرواية الوحيدة

التي يمكن القول بأنها رواية ناجحة فنياً ، ولهذا نالت شهرة واسعة بين أبناء الأردية ، وأشاد بها جميع النقاد .

كتب شرر روايته "فردوس برين" سنة ١٨٩٩م ؛ فقدم لكتاب الرواية في شبه القارة الهندية نموذجاً طيباً للرواية ، إذ تعد فردوس برين أو الفردوس الأعلى من ناحية الشكل الروائي من أحسن رواياته ، رغم أنها من ناحية فن كتابة الرواية التاريخية لم تحقق النجاح المطلوب .

ويذكر أنه كتب أول رواياته سنة ١٨٨٥م بعنوان "داجسب" ، وكتب أول رواية تاريخية له سنة ١٨٨٨م بعنوان "ملك العزيز وفرجينيا" ثم كتب عدداً من الروايات فيما بعد منها الرواية المترجمة هنا ورواية قيس ولبنى ورواية يوسف ونجمة ورواية أيام العرب وغيرها ، ورغم كثرة ماكتب من روايات إلا أن رواية فردوس برين تعد من ناحية الشكل من أنجح رواياته ، بل تعد حجر الأساس للشكل الروائي في الأدب الأردني ، فعناصر الرواية هنا تتجمع لتعطي تأثيراً كاملاً في القراء ؛ إذ نلاحظ أن الحبكة الروائية ، ورسم الشخصيات ، وتصوير البيئة ، والتعبير عن العواطف وفلسفة الحياة ، كل هذه العناصر تتجمع لتعطي التأثير الذي يمكن أن نتصف به الرواية الدرامية ، لقد كتب شرر فردوس برين فأرسي بذلك دعائم كتابة الرواية الدرامية في الأدب الأردني الروائي ، وهذا يعني أنه ترسم صورة لتجارب الحياة ، وهكذا عرض شرر في فردوس برين تجارب "حسين" بطل روايته ، مما يضيف على الرواية خصوصية درامية نلاحظها في تجدد العمل من خلال الشخصية ، والعمل يغير من صورة الشخصيات ، وهكذا تمضي الرواية إلى نهايتها عن طريق العمل أو الفعل ورد الفعل ،

وقد حملت الرواية فى بدايتها الأسرار التى تجعل منها رواية جذابة ، وتستمر هكذا حتى تتكشف الأسرار فى نهاية الرواية ، وهذه الأسرار هى التى حملت عناصر الرواية إلى المركز ، وهذا المركز هو الذى يضم البناء الروائى ، ففي فرودس برين أسرار أساسية تبدأ بغياب "زمرد" حبيبة حسين وزوج المستقبل ، فتلف هذه الأسرار فى تلايبيها حسينا الذى يتلقى رسائل «زمرد» من العالم الآخر فيعمل طبقا لأوامرها وينضم إلى فرقة الحشاشين الباطنية ، عندئذ تتجمع عناصر متنوعة :

قوة هذه الفرقة الجبارة ، وسائل السيطرة على المعتقدين بمبادئها ، وهى وسائل محيرة ، بعض الشخصيات العجيبة لهذه الفرقة ، المساوئ والخراب الذى أحدثته هذه الفرقة ، ارتكاب حسين لجرائمه الشنيعة بعد أن سقط فى أيدي هذه الفرقة ، الجنة المزيقة ، ثم القضاء على هذه الفرقة وانكشاف جميع الأسرار ، وهكذا تكتمل جميع العناصر التركيبية للرواية كلها بانسجام فى جو ممتع تلفه الحيرة أحيانا .

وبالإضافة إلى الحبكة الروائية نلاحظ أيضا دقة رسم الشخصيات وخاصة شخصية الشيخ على وجودى ، الذى يعد من أبرز من صورهم شرر فى روايته من شخصيات ، فقد أفاد شرر من الحوار الرائع لإبراز صورة هذه الشخصية ، التى أشاد بها جميع نقاد الأدب الأردى .

ولاشك أن هذه الرواية تعد من أفضل ماكتب شرر ، رغم أنها إذا وضعت على محك الرواية التاريخية فإن بها العديد من نقاط الضعف ، وربما يرجع السبب إلى أن عبد الحليم شرر لم يعرض الحياة الكاملة

للعهد الذى تناول فيه أسلوب عمل الفرقة الباطنية ، وهو ما تداركه فى روايته "بابك خرمى" التى كتبها سنة ١٩١٧م ، وتناول فيها جرائم الخرميين فى عصر الدولة العباسية ، تلك الجرائم التى أثرت فى نسيج الحياة الاجتماعية العامة ، وعلى العكس من هذا فهو فى فريوس برين قصر روايته على النشاط الداخلى للفرقة الباطنية دون ذكر شئ عن الأحوال والظروف السياسية لتلك الفترة ، ولا عن حكام تلك الفترة ولا عن التدابير التى اتخذت للقضاء على هذه الفتنة، فالقارئ لا يدرك شيئاً عن تأثير الفرقة على حياة تلك الفترة ، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية لذلك العهد وأسلوب ونهج الحياة العامة آنذاك وأفكار الناس المتعلقين بالفرقة الباطنية ، فكل هذا لم توضحه الرواية ، فضلاً عن أن القارئ يلاحظ بعض الأمور المتضاربة ؛ فحسين وزمرد يعتقدان تماماً فى وجود الحور ؛ لدرجة أنهما يشاهدان بعض النسوة فيعتقدان بأنهما شاهدا "حوريات" من الجنة فيصابا بالإغماء ، وحسين يصل به الوهم إلى درجة أنه يجد خطاب زمرد فيظل يعتقد بأنه مرسل إليه من الفريوس الأعلى ، دون أن يعمل فكره مرة واحدة ، لكن حين تصدر له الأوامر من خلال الخطاب بالعودة إلى بيته يبدأ فى التفكير فيما حدث .

وعلى كل حال لم توضح الرواية أسباب غرق حسين وزمرد فيما غرقا فيه من وهم ، وعلى كل حال فالإبقاء على أسرار الفرقة الباطنية دون الكشف عنها إلى آخر الرواية نال رضا النقاد والأدباء فى شبه القارة ، ومع هذا فلا يمكن القول بأن الرواية نجحت كرواية تاريخية ؛ لأن الرواية التاريخية ؛ يجب أن تقدم الشخصيات التاريخية وغير التاريخية بحيث تعبر عن جميع ظروف المجتمع فى ذلك الوقت ،

وهذا ما تفتقده رواية فردوس برين أو الفردوس الأعلى ، فهي لا تلقى الضوء على الأحوال والظروف الاجتماعية لذلك الوقت ، ولو لم يذكر شرر السنة والمكان لما عرف القارئ أن هذه الرواية تنتمي إلى زمن مضى !

ورغم هذا فقد نالت رواية "فردوس برين" إعجاب القراء في شبه القارة الهندية الباكستانية ، وصدرت لها طبعات كثيرة طوال السنوات السبعين الماضية ، لكن الناشرين لم يهتموا بتصحيح الكتابة ، ولهذا وجدت أخطاء مطبعية كثيرة جداً ، وجاءت العبارات أحياناً غير مترابطة نتيجة عمل النساخ الذين كانوا يضيفون من عندهم أحياناً ، مما دفع أحد علماء الأردية وهو الدكتور قمر رئيس إلى إصدار طبعة منقحة ، يكون متنها خالياً من كل خطأ ، بعد أن وازن بعض النسخ القديمة ليصدر هذه الطبعة في فبراير سنة ١٩٨٢م وهي الطبعة التي اعتمد عليها الدكتور جلال السعيد الحفناوى في ترجمته التي تصدر بالعربية لأول مرة .

ولاشك أن الدكتور جلال السعيد الحفناوى قد بذل جهداً كبيراً في سبيل ترجمة هذه الرواية التي يرجع تأليفها إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وهو بترجمته هذه يقدم لقراء العربية والمهتمين بالآداب الشرقية نموذجاً فريداً من نماذج الأدب الروائى الشرقى بقلم أديب متميز من أدباء الهند الكبار ، وسوف تتيح هذه الترجمة للمهتمين بالدراسات الشرقية والدراسات الأدبية المقارنة فرصة للتعرف على نماذج من الأدب الأردى الذى يرجع تاريخه إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ولايفوتنى هنا أن أتقدم بالشكر للمجلس الأعلى للثقافة ممثلاً في
شخص الأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة
على اهتمامه بنشر ترجمة هذه الأعمال الإبداعية المتميزة من الآداب
الشرقية إلى اللغة العربية . وبالله التوفيق .

سمير عبد الحميد إبراهيم

الباب الأول

سرب الخوريات (الخور)

نحن الآن فى عام ٦٥١هـ ، لكن قبل ذلك بقرن ونصف قرن كان معظم السياح خاصة الحجاج يسلكون طريقاً غير ممهد ووعر، مليئاً بالمخاطر والصعاب ، يبدأ من الساحل الجنوبى لبحر الخزر (بحيرة قزوين) ثم يتوغل فى مدينة آمل ماراً بمنطقة رودبار ومازندران وهى ملاعب الجن القديمة التى ورد ذكرها فى الشاهنامة ثم يقطع جبل طالقان شمالاً وجنوباً ليخرج من مدينة قزوين. ظل هذا الطريق فترة من الوقت على هذا الحال حين كانت القوافل الكبيرة تنهب وتُسرق فى وضوح النهار بلا أدنى خوف، وبقيت هناك جثث الأبرياء مدفونة فى الجليد منذ سنوات عديدة دليلاً شاهداً على الظلم والقتل والنهب.

كان فصل الشتاء قد بدأ فى تلك الأيام؛ ولم تكن طبقات جليد العام الماضى قد ذابت كلياً ، فى حين بدأت تتكون طبقات جديدة ، ولم يكن الصقيع قد بلغ منتهاه حتى ذلك الحين ، بينما انتهت ملامح فصل الربيع وبهجة فصل الورود التى لم يبق منها سوى ورود نهاية الفصل المتناثرة هنا

وهناك، نلمح فى أماكن متفرقة البلابل (البدخشانية) التى تعشق الورود تتغنى بألحان جميلة عذبة، تقص آلاف الحكايات، لم تكن هذه المنطقة الجبلية تشبه جبال جزيرة العرب المقفرة، الجرداء، وبشمسها المحرقة، بل كانت فى كل أنحائها دوحة متشابكة الأشجار وارقة الظلال يتخذ منها محبو الطبيعة وطالبو الحقيقة خلوات مثالية للعزلة والوحدة. وبينما كان ذلك المكان دوحة أشجار فرشتها الطبيعة من تحتها ببسط مخملية وعشب أخضر كانت السماء خيمة زرقاء حتى إنك لو افترشتها وجلست عليها لرغبت فى التمتع بالخمر الشيرازية، وهنا نهر ديرنجان بديلاً عن نهر ركن آباد الذى قد توقف عن الجريان منذ مائة وخمسين عاماً كاملة، فبعد أن يقطع (رود سفيد) يتشعب فى الممرات الجبلية المختلفة ويصُب فى النهاية فى بحر الخزر بالقرب من مدينة خرم آباد.

كانت تلك المناظر الخلابة والطبيعة الفاتنة سبباً فى ظهور الحكايات المختلفة المرتبطة بهذا الجبل، يقول بعض الناس إن الجن موجود فى تلك الممرات الجبلية، ويعتقد البعض أن كيومرث ورستم ونريمان قد قضوا بسواعدهم القوية على جماعة الجن، إلا أنه مازال هناك كثير من الحوريات تعيش فى تلك المناطق المعزولة حتى اليوم تذكرنا بجماعة الجن، وقد رأى معظم العالمين ببواطن الأمور تلك الحوريات وهى تطير، كما رأى بعض السياح سرب الحور المبهر يخرج فجأة من بين الشعاب الجبلية، ويروى أنه من كان وحيداً وصادف هذا السرب سقط تحت أقدام الحور ومات على الفور.

إلا أن الباطنية والملاحدة الذين يقطنون هذه المنطقة ويتشرون بها أكثر ظلمًا وبطشًا من الحور والجن، وطبقاً للأصول والعقائد القديمة فإن المسلم

الذى يقع فى أيديهم لا يمكن أن يَسَلَمَ بأى حال ، وخاصة فى شهور جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب ؛ حيث تكون مظالمهم على أشدها ، وسبب هذا أن المسلمين فى مناطق تركستان وقرغيزستان واستراخان يتزلون فى هذه المنطقة عندما يتوجهون للحج ؛ فإنهم بعد أن يعبروا بحر الخزر بالمراكب ، ثم يطوون جبل طالقان هذا حتى يصلوا إلى أرض العراق ومنها يقصدون أراضى الحجاز المقدسة ، ورغم أن بطشهم اشتهر فى كل مكان هناك فقد هجر معظم الناس هذا الطريق ، إلا أن بعض المسلمين ممن لا يبالغون بالأمر لا زالوا يمرون به بدافع من الحماس وحسن النية ، وخاصة أهل آمل وما حولها ، فليس لهم من طريق غيره .

هذا الطريق الذى ورد ذكره يمتد إلى مسافة بعيدة جدا ، إلا أننا لن نهتم إلا بهذا الجزء من الطريق الذى يمر على ساحل نهر ديرنجان ، وينتهى هذا المكان بوادى رودبار وتبدأ المرتفعات والمنخفضات الجبلية المتعرجة والوعرة ، وإذا ما تقدمنا قليلا مضى الطريق إلى ناحية أخرى واختفى بين الشعاب الجبلية الملتوية بعد دورانه فى أحضان نهر جبل البرز .

بقى على الليل بضع ساعات ، واقتربت الشمس من القمم المكتسية بالثلوج ، وقد زال الدفء القليل الذى كان فى أشعتها الواهنة ، وهبت لفحات الهواء الباردة من أعالي المنطقة الثلجية ؛ فكانت كافية لكى تسرى القشعريرة فى الإنسان .

وفى هذا المكان ، وفى هذه الحالة ، ظهر مسافران يتهاديان رويداً رويداً من ناحية الشمال ، وكانا قد اتفقا بالملابس من رأسيهما حتى

أخمص أقدامهما كأنهما كتلة كبيرة من الملابس ، وكان كل منهما يمتطى حماراً صغيراً منهك القوى ، ويسدو من وجهيهما الشاحبين وحالتهم العامة أنهما صوفيان فقيران من قرية ما ، أو درويشان تركا الثروة وتركوا الفروسية وخرجوا في هذا السفر لأمر مقدس ولهدف ديني . . لكن لا . . فعندما اقتربا اتضح أنهما ليس شيخين ولا صوفيين ، بل هما شابان من أبناء النبلاء ، ومن المدهش أن أحدهما رجل والآخر امرأة ، ويظهر من وجهيهما أنهما من أسرة عريقة ومن المستحيل ألا يكون إلا من أسرة عريقة رغم أن ذلك لا يبدو من هيئتهما أو ملابسهما ؛ لأنهما كانا يتزيان بزي أشراف أمل تحت الأردية الثقيلة التي تغطهما تماماً ؛ أما الرجل فهو في مقتبل شبابه ، وهو شاب وسيم يرتدى لبادة كبيرة من الجلد على قفطان صوفى وعلى رأسه قلنسوة تركية طويلة قديمة مصنوعة من عيدان الخيزران على شكل مخروطى ملفوفة بجلد شاة سوداء ، وعلى القلنسوة عمامة قد لفت مرات معدة حول رقبته وأذنيه من أسفل إلى أعلى ، وفى قدميه جورب وسروال صوفى وقد تمنطق بحزام من الجلد ثبت فيه خنجراً كما علق فيه سيفاً وجعل فيه جعبة للقوس والسهم ، كان من العادات التي يحرصون عليها قديماً أن يربطوا الأسلحة ببردة الحمار ويضعون بها حربة يستعملها هذا الفتى الشجاع فى الصيد بالإضافة إلى زاد الطريق الضرورى لسد رمقه هو ورفيقة سفره الفاتنة ، كان هذا الفتى يمتطى حماراً بينما امتطت الحمار الآخر فتاة جميلة فى الثامنة أو التاسعة عشرة من عمرها فى ملابس كثرة رثة تخفى حسناتها الأخاذ إلى حد كبير ، لكن أتى لها أن تخفى حركاتها ودلالها ، فهذه المساحة المكشوفة من وجهها تنم عن حسناتها وجمالها ، ومن يحظى برؤيتها لأول مرة يعلم أنه لن يرى مثل هذا الحسن وذاك الدلال ، ولكن جميلتنا ذات الحسن النادر كانت ترتدى سروالاً

فضفاضًا من الحرير الأصفر من أعلاه لأسفله ، وتربط على ركبتيها قطعة من القماش المموج المزركش ، وتلف عنقها بشال حرير أحمر ، وتغطي رأسها بخمار أزرق من قماش الحرير الأطلسي ؛ كانت كل هذه الثياب مختفية تحت جلباب صوفى ، وكان الشيء الوحيد الذى يدل على أنها امرأة هو مئات الصفائر الصغيرة التى كانت تخرج من تحت الخمار وتتبعثر من كتف إلى آخر ثم تستقر على ظهرها ، وكانت تتعر مرارًا بسبب وعورة الطريق أو سرعة الحمار .

ومع أنه من الصعب تصوير جمال هذه الفتاة الفاتنة ، إلا أن هذه الصفات ربما ترسم صورة بسيطة لوجه جميل جذاب أمام المولعين والمتحرقين شوقًا للجمال والحب ، ويكفى للمرء أن يفقد صوابه ما إن يرى تناسق أعضائها الفائق بما فى ذلك وجهها المستدير كقرص الشمس كما هو الحال عند ساكنى الجبال ، وخذها المشرب بالحمرة وعيناها السنجلاوان العسلتان ورموشها الطويلة المشرعة وجبهتها العريضة وشفاتها الرقيقتان بما فيهما من اعوجاج يبسط نواجزها الرقيقة الممتدة إلى ذقنها المدبب كأنه صب فى قالب صغير ونظراتها الخاطفة ، بالإضافة إلى عينيْن وحاجبيْن جريئتين .

كان هذان المسافران الشابان يجيلان النظر فى كل اتجاه وهما يسيران فى صمت وقلباهما يرتعدان من الخوف بسبب صعوبات الطريق ، وبدأ الاضطراب يظهر على وجهيهما الرقيق الذى لم تنضجه التجربة بعد بسبب حلول الظلام ، ورغم هذا لم ينطقا بحرف ، وفجأة تغلبت على الفتاة عواطف لحظية آتية مفاجأة فأخذت نفسًا باردًا وسألت بصوت رقيق ساحر "أى يوم هذا؟" .

الشاب : (بعد أن بدأ يحسب في صمت) الخميس .

الفتاة : (في لهجة ممزوجة بالحسرة) لقد انقضى اليوم على تركنا
لمنزلنا ثمانية أيام كاملة (وبعد ستة من التأمل) يعلم الله ماذا سيقول الناس
وكيف سيكونون آراءهم .

الشاب : سيقولون إننا تركنا وطننا شوقاً إلى الحج .

الفتاة : (بعد أن زفرت آهة باردة) وسيتهمونني كذلك بأنني رحلت
مع غير محرم .

الشاب : يا زمرد (اسم هذه الفتاة) لم أعد الآن غير محرم بالنسبة
لك ، سنصل إلى قزوين في خلال بضعة أيام ، وستزوج بمجرد أن نصل
إلى هناك .

زمرد : (بعد أن أخذت نفساً بارداً) يعلم الله هل سيكتب لنا
الوصول إلى هناك أم لا ؟ فالطريق معروف بمخاطره وصعوباته ، والمسافر
المحظوظ هو من لا يقع في قبضة الحور ، وحتى لو نجأ فأنى للملاحدة (*)
أن يتركوه ؛ عندئذ طرأ على زمرد تغير غير عادي ؛ فقد ذكرها ذلك
المكان بذكرى خاصة ، وأخذت تتلفت في كل مكان وتنظر حولها في كل
اتجاه وتأوهت آهة باردة عدة مرات .

لم يفكر الشاب في هذا الأمر قط ، ثم بدأ يقول في لهجة عادية :
" أنا مطمئن من جانب الملاحدة ؛ لأنني تلقيت رسالة من "ملا حسبة
الله" نقييهم المشهور في آمل ، وسأستعمل هذه الرسالة كتعويذة مجربة
أقدمها لهم وستنجو من يد القرامطة الظالمين .

(*) الملاحدة : كان لقباً عاماً للقرامطة ، وخاصة الباطنية (المؤلف).

كان المسافران الشابان يتحدثان عن هذه الأمور عندما وصلا إلى الطريق الذى يبدأ منه (معه) الصعود على قمة الجبل بعد أن يفترق عن النهر ناحية اليمين ليدخل بين آكام الشجر والأشواك الكثيفة والشعاب الوعرة، فتقدم الشاب على الطريق بحماره ؛ فإذا بزمرد تمسك باللجام وتقول: " لا يا حسين " (وهو اسم الشاب).

حسين : (بعد أن نظر إلى زمرد فى حيرة) إلى أين؟

زمرد : حيث يجرى النهر.

حسين : لا يوجد طريق هناك.

زمرد : أمشى .. هيا :

حسين : أنحن متوجهون إلى قزوين أم إلى مكان آخر؟

زمرد : لا ليست قزوين هدفى المنشود، بل أريد أن أعرف إلى أين يتجه هذا النهر.

حسين : لكن موطن الحور فى هذه الناحية .

زمرد : ليكن ما يكون .

حسين : لقد سمعت أن أحداً لم يخرج حياً من هذه الناحية.

زمرد : هذا ما أريده.

فنظر حسين إلى زمرد فى حيرة وتعجب ، وقال بلهجة جادة: وماذا عن الرغبة فى الحج؟

زمرد : مازالت لدى الرغبة، فبعد أن نذهب إلى قبر أخى موسى ونقرأ عليه الفاتحة نتجه إلى مكة المكرمة.

حسين : قبر أخيك!، لكن لا أحد يعرف مكانه؟

زمرّد : أنا أعرفه ، وأعرف الطريق إليه .

حسين : (فى حيرة) أنتِ؟ أتّى لك أن تعرفى؟

زمرّد : أعرفه جيّدًا .

حسين : هل جئتِ هنا؟

زمرّد : لا ، ولكن يعقوب الذى كان حمل إلينا خبر وفاة أخى موسى يعرفه جيّدًا ، وأول علامة للوصول إليه هى أن يفترق النهر عن الطريق ، وبعدها يجب السير على شاطئ النهر ، وبعد أن نمشى سأخبرك بعلامات أخرى .

حسين : ماذا يعرف يعقوب ، ومن يستطيع إن يقول أن أخاك أو أى شخص مات فى هذه الجبال الشاهقة المتداخلة وكيف مات وأين ومن؟

زمرّد : ألا إن أخى موسى ويعقوب كانا معًا ، وبعد أن وصلا إلى هذا المكان الذى يتعد قليلاً عن شاطئ البحر هبط عليهم سرب الحور من جبال البرز ومات أخى على أيديهم ، بينما سقط يعقوب مغشياً عليه ، وعندما استرد وعيه فى اليوم الثانى وجد جثة أخى فأعد له قبرًا ودفنه فيه ، وحفر اسمه على حجر بالقرب من القبر ثم رجع .

حسين : أنا أعرف أن هذا كلام لا طائل وراءه ، وفى النهاية ما السبب الذى جعل الحوريات يقتلن أخاك ويتركن يعقوب حيًا .

زمرّد : السبب هو أن أخى أمسك بيد إحدى الحوريات ، بينما كان يعقوب جبانًا ؛ فلما رأى الحور سقط مغشياً عليه .

حسين : إذن لا ينبغي الذهاب إلى مثل هذا المكان.

زمرد : بل سأذهب حتماً.

حسين : افرضي أننا وصلنا إلى هناك وهبط أمامنا سرب الحور!

زمرد : أنا لن أخاف لا تأتِ إن كنت خائفاً.

حسين : اذهبي بمفردك فلن أذهب! أنا مستعد دائماً للتضحية بروحي في سبيل حبك.

زمرد : اسمع يا حسين، أنا لن آتي معك، كما أنني أعترف أنك رجل شهم أحببتك منذ كنا ندرس معاً في المدرسة، لكن لا تفهم أنك قد أغريت بنتاً شريفة وأخذتها من بيتها ؛ لقد جئت معك برغبتى، لكن آمل أن أقف أمام قبر أخى وأذرف الدموع لا شيء إلا، وعندما أحقق أملى هذا سأذهب معك للحج.

حسين : يا زمرد راعى شبابك وصغر سنك وتخلي عن هذه الأمنية.

زمرد : لا.. مستحيل، لقد احتملت الإهانة من أجل تحقيق هذه الأمنية.

حسين : (بصوت يائس) يا إلهي! اقبض روحى قبلها.

زمرد : أدعو الله ألا يربنى هذا، (قالت مبتسمة) فالواحد منا يحب الآخر ، ولو متنا فسوف نموت معاً.

قالت زمرد هذا ثم اتجهت بحمارها ناحية نهر ديرنجان ، ولم تكذب
تمضى خطوتين حتى منعها حسين قائلاً، يا زمرد اصبرى قليلاً ولنواصل
السير غداً ، لقد حل المساء علينا فهل تريدان أن تصلى فى الليل؟

زمرد : كف عن هذا ولنواصل السير إذا سرنا فلا أمل فى وجود مكان أهل ومادمننا نغضى فى الصحراء فجميع الأماكن متشابهة.

لم يستطع حسين أن يرفض بأى شكل من الأشكال، فمضى والتردد يملأ قلبه ، ودلف مع زمرد فى شعاب جبل البرز المظلمة الحالكة ، وأخذوا يسيران ببطء وتؤده ، امتلأ قلباهما بالرعب من هذا المكان الموحش الذى سادته السكون ، وكانت الغابة تزداد كثافة كلما توغلا فيها ، ويزيد الصقيع ساعة بعد ساعة ، والصمت المطبق كان يضاعف صوت خرير النهر ؛ فتزايد الرهبة من هذا المكان الموحش، صار الطريق الآن وعرا فاضطروا إلى النزول عن حماريهما، وسار كل منهما فى الأحراش وهو يتحاشى الأرض الصخرية ويمسك بزمام حماره يتبع أحدهما الآخر، وبعد فترة من الصمت قال حسين وهو يرتعد من الخوف: لا بد أن الحور يقطن فى مثل هذا المكان المرعب ؛ فهل يمكن أن يوجد هنا إنسان، إن لم يوجد حتى أثر لحيوان؟

زمرد : نعم لو قد سمعت أن الحور يظهرن فى مواضع كثيرة من هذا النهر ، وهن يسبحن وشعرهن مكشوف ويتلاعبن ، ويرش بعضهن البعض بالماء.

حسين : (مضطرباً) ما هذا! أى صوت هذا؟ كان شيئاً ما مرق سريعاً بجوار أذنى.

زمرد : من المعروف أن عرش الحور لا يُرى وهو يطير ، لكن صوت طيرانه لا بد أن يُسمع.

حسين : هذا أيضاً ممكن، لكنى أظن أن ذلك كان صوت حيوان ما.

زمرد : لو كان حيواناً أتظن أنه لا يُرى؟

حسين : مع أن الشمس لم تغرب حتى الآن ، لكن - كما تشاهدين -
صارت الدنيا أكثر ظلمة من الليل ؛ ففي بعض الأوقات عندما يجن الليل
يخرج البوم أو الخفافيش الكبيرة وتطير محدثة مثل هذا الصوت المرعب .
زمرد : لكن في الحقيقة الحور أنفسهن يخرجن في الليل على هيئة
حيوانات مختلفة .

حسين : ربما - نطق بهذه الكلمة ثم أخذ يتطلع حوله بنظرات
مضطربة وخائفة ، ثم قال بصوت متهدج : سيحل المساء ، ولن تستدلى
على قبر أخيك في أى مكان .

زمرد : لكننى لن يقر لى قرار حتى أصل إلى قبر أخى .

قالت هذا وهى تنظر إلى ممر مظلم يجرى فيه نهر وعلى شاطئيه
صخور ملساء بارزة يصعب على الإنسان اجتيازها ، وعندما رأت زمرد هذا
المر صاحب بشوق وبلا وعى ، نعم انظر هذه هى ، ستمضى من هنا
العلامة الثانية ؛ فالطريق من هنا يبدأ .

حسين : لكن لا أفهم كيف نسير من هنا؟

زمرد : سوف أمضى بأى شكل ضرورى . .

حسين : وهذان الحماران .

زمرد : نتركهما هنا لناخلهما حين نرجع .

نظر حسين بتعجب إلى حماس زمرد واعتدادها برأيها ثم ربط
الحمارين في شجرة وتقدم حسين وزمرد إلى الأمام والتصقيا بالصخور
وأمسكا يديهما نتوءات الصخور البارزة ، واستمر هذا السفر الشاق

ساعتين حتى انتهى الممر ، وبعد أن اجتازاه نظرا فى حيرة إلى حيث يصب نهر يرنجان ؛ فشاهدا فجأة مروج غاية فى البهجة والروعة . لقد كان المكان عجيباً حيث رقت الطبيعة الحداثق بأيديها ، فأحواض الورود المتفتحة ذات الألوان المتباينة تنتشر فى مساحات شاسعة والطيور المفردة موجودة بكثرة ، ويبدل كل من سكن الروضة جهده فى سبيل حسناتها وجمالها . كان الليل لا يزال يلف المكان وهؤلاء المحبون المتحمسون المتواجدون فى الروضة يودعون حبيباتهم الوداع الأخير ، عندما رأت زمرد هذا المنظر فقالت فى سعادة: "الآن وصلنا إلى هدفنا المنشود، فقد مات أخى موسى فى هذا الوادى وربما يكون قبره فى أى موضع هنا" . بعد أن قالت زمرد هذا أخذت تجرى فى كل اتجاه مثل الغزالة الشاردة النشيطة الرشيقة ثم توقفت عند حجر كبير وصاحت "حسناً هذا قبر أخى" .

بعد أن سمع حسين عبارتها تلك أسرع إلى هناك فرأى حجراً محفوراً عليه اسم موسى ، وبالقرب منه مجموعة من الأحجار رقت موازية له على هيئة قبر فوقف عليه وقرأ الفاتحة ، إلا أن الحزن واللهفة قد تغلبت على قلب زمرد فسقطت على الأرض قبل أن تنتهى من قراءة الفاتحة ، واحتضنت القبر وبدأت فى البكاء والعويل ، وأخذ حسين يواسيها ثم أحضر ماءً وغسل وجهها وجلس محتضناً حبيبته الجميلة فى ظلام الليل الدامس وأخذ ينصحها .

زمرد (بصوت متحشرج) لا أريد أن أعيش يا حسين وأعرف أننى سأموت فى هذا المكان وقد ارتعدت فرائصى ، وكبدى يتفتت ، وقلبي سيهبط ، لكنى أوصيك قبل أن تموت أن توسد جسدى تحت تلك الأحجار بجوار رفات أخى موسى .

حسين : (فى حدة شديدة وعيناه مغرورتان بالدموع) إذا نفّذت هذه الوصية فلن ينفذها إلا رجل آخر غيرى فلا يمكّنتى أن أعيش بعدك ، ومن ينفذ هذه الوصية لابد أن يقوم كذلك بتوسيد جسدى معك تحت تلك الأحجار .

زمرد : (فى ضراعة) لا يا حسين لا تفعل هذا، إنك لا تعلم ماذا يجذبنى إلى هذا المكان الآن، لن أقول إنه محبة ولا يمكّنتى أن أقول إن وصف يعقوب كان فيه سحر ، ولكن فى اليوم الذى سمعت فيه قصة وفاة أخى موسى، رأيت حلمًا فى اليوم التالى كأن أخى يقف فى هذا الوادى، ويشير بيده نحوى وينادينى قائلاً: تعالى إلى قبرى واقراى القباينة ؛ لقد نادانى أخى المرحوم بطريقة مؤثرة وصورته آنذاك مارالت ماثلة أمام عينى ، وهكذا يمكن أن تدرك أننى جئت إلى هنا ألبى نداء أخى .

حسين : (لم يتمالك نفسه من البكاء الغزير، فقال بحماس شديد) حسنًا لقد ناداك فى الحلم فأحضرتينى معك .

زمرد : نعم لقد أحضرتك معى لهذا السبب ؛ فليس لى فى هذه الدنيا أحب منك ، وأمنيتى أن أسلم الروح أمام عينيك وبجوارك، بعدها تعود إلى البيت لتدافع عن سمعتى التى شوهت أمام أهلى وشرفاء المدينة الآخرين تخبرهم بنبأ موتى ، ولماذا مُت ؟ وأين ؟ وتؤكد لهم أننى كنت طاهرة الثوب عفيفة حتى وفاتى يا حسين ، أمنيتى أن تبقى حيًا وتظهر ثوبى من سوء السمعة .

حسين : (بعويل مفجع) لا قدر الله أن أحمل خبر وفاتك .

وفجأة انبعث ضوء على سطح منحدر جبل صغير وقع نظر زمرد عليه أولاً فقالت بعد أن فزعت كيف انبعث هذا الضوء؟

نظر حسين في حيرة إلى هذا الضوء وقال " الله يعلم حقيقته ، انظرى
إنه يتزايد من هنا من أولئك الناس الذين يستطيعون القدوم إلى هذا المكان
في هذه الليلة المظلمة؟

اضطرب المحبان بسبب هذا الضوء ، وازدادت حيرتهما ساعة بعد
ساعة وهم يشاهدانه يقترب منهما كثيراً ، كانت هناك مشاعل كبيرة تتراوح
أعدادها ما بين خمسة عشرة أو عشرين ومن تحتها سرب كبير من النساء
الجميلات الحسنات كالحور ، وعندما رأى حسين وزمرد هذه الحالة
صرخا مذعورين وقال كلاهما في صوت واحد: " الحوريات " وأصيبا
بالإغماء ، وفقدنا وعيهما تماماً.

الباب الثانى

حبیبتى زمرد أين ذهبى؟

لَوْن سجادتك بالخمر، مهما يقل لك شيخ المجوس

كان الصبح قد انبلج والنسيم يهب بينما كانت طيور السحر تستعد للخروج من وكناتها فأيقظ ذلك حسين من حلمه الذى فقد فيه ؛ وعيه فتقلب متشياً ذات اليمين و ذات الشمال ثم نهض وفرك عينيه بيده ، وأخذ يتلفت فى كل اتجاه ، لكنه لم يجد أثراً لزمرد فى أى مكان ، أخذته الحيرة والدهشة حين لم تقع عيناه على الوجه الجميل لحبيته الفاتنة ، ومالت به الأرض بسبب ذهوله وضعفه وتعثرت أقدامه ووقع عدة مرات وهو ينظر حوله ، وأخذ يجيل نظره فى كل مكان باحثاً عنها ، لكن لم يجد أثراً للحبيبة الفاتنة زمرد فى أى مكان ، ويعد أن تعب من البحث وصل إلى قبر موسى وجلس عنده، وأخذ يزرف دموع الحسرة والألم وبدأ يقول: أين ذهبى حبيبتى زمرد؟ أه هل ابتلعها الأرض والسماء؟ أم اصطحبتها حوريات الليل!

وقع نظره على قبر موسى بالصدفة ؛ فاندesh بعد أن رأى القبر قد حدث فيه بعض التغير ؛ إذ زيدت عليه بعض الحجارة التى لم تكن

موجودة حتى مساء أمس ، ولم تكن دهشته قد زالت بعد حتى وقع نظره على الحجر الذى حفر عليه اسم موسى ؛ فرأى تغيراً آخر فى الكتابة فبدأ يقرأها بتمعن ثم قال بصوت مرتفع نسيباً "موسى وزمرد" عندها صرخ وأخذ يدور مدهولاً وقد باغتته صدمة قوية وغلبه الحزن والغم ، وبعد أن استرد وعيه قال فى نفسه : وأسفاه لقد حدث ما قالت زمرد ، ماتت هى وأنا حي ، آه ! يا لهن من حوريات ظالمة قتلنها وتركنتى بين الحياة والموت ، آه لقد كانت زمرد روحى ؛ فكيف أعيش بدونها ، قال هذا ثم بدأ يحطم ذلك الحجر المحفور عليه اسم الأخ والأخت ، وخطر على باله أن يفتح القبر ويدفن نفسه فيه ، لكنه استبعد هذه الفكرة بعد أن همست صوت ملائكة الرحمن فى أذنه كأنها تقول : "هذا الأمر يتعارض مع الشرع ويهين الموتى" ، وبعد أن استمع إلى نداء ملائكة الغيب صاح قائلاً : "آه ماذا أفعل إذن" ، قال هذا ثم سقط على الأرض وهو يتلوى ، وبعد فترة من البكاء والعويل نهض وأسرع نحو قبر موسى يحتضنه ظناً منه أنه قبر زمرد ، وأخذ يخاطبها كأنه يخاطب شخصاً على قيد الحياة قائلاً : "حبيبتى زمرد الموت ليس باختيارنا وقتل النفس حرام والحياة بلا فائدة وبلا طعم ، لكن متى يحل الموت ، وإذا كان لابد منه فلماذا لا أنتظره هنا فى هذا المكان ، إن قبرك سيكون مؤنس وجليسى فى الأيام الباقية لى فى هذه الدنيا ، وخيالك سيكون محبوبى الوفى ، الآن سأعيش هنا وسأموت هنا ، وكما استدعاك أخوك إليه فاستدعيني أنت أيضاً ، ولا يمكنتى أن أنفذ وصيتك ؛ لأنى سأملك هنا ولا يستبعد أن تمر الحوريات هنا وتوصلنى إليك بلا أدنى مشقة" .

هدأ حسين بعض الشيء بعد أن حسم هذا الأمر مع نفسه ، ونهض من فوق القبر ، وذهب ناحية شاطئ النهر ورش على عينيه الدامعتين ماءً

نظيفاً طهوراً ثم توضأ ووقف فى محاذاة القبر وصلى عدة ركعات نافلة ثم جلس وأخذ يدعو لزمره بالمغفرة فى خشوع وسكينة ، وقرر أن يعيش فى هذا المكان طوال حياته .

لقد اختار حسين هذه الحياة بقوة بأسه ، وشعر بلذة وهو ينتظر الحور من الآخرة أو يدعو لنفسه بالموت ، ولم يعد يتذكر موطنه ولا حتى رغبته فى الحج ، وصار خيال زمرد قبلته ، وقبرها المشترك مسجده ، وكلأ الغابة قوته ، وكان أحياناً يعيش على صيد العصافير ، وظل ينتظر رسالة الموت فى كل لحظة ، وكان إذا ما غلبه الحزن والغم يعانق قبر محبوبته الفاتنة ، ويبكى حتى تنهر الدموع فتغسل الحزن من قلبه .

ظل على هذه الحالة ستة أشهر لا يبرح مكانه بجوار قبر موسى وزمرد ، وعاش فى تلك الجبال طوال فصل الشتاء حين كُسى قبر شهيدى الحسرة المظلومين برداء من الثلج لفترة من الوقت ، وتجمشم برودة الجو القارس وتساقط الثلوج بصبر وشكر ، وحل فصل الربيع إذ ذاك فامتلات بالأزاهير المروج والأودية فى كل جانب ، وكان الهواء يتضوع دائماً بالمسك والعطر والطيب فتضاعف أمنيات القلب ساعة بعد ساعة حتى ازداد حزن حسين إذ ذاك حدة عن ذى قبل ، وكلما رأى الربيع وهذه الورود ازداد يقينا بقدوم الحوريات ، وبدأ يظهر عليه الاضطراب ونقد صبره وهو ينتظر الحور الظالمات ، وفى أحد الأيام أخذ يتتعب ويقول " وأسفاه لقد أنجزت الحور مهمتها بالنسبة لموسى وزمرد فى يوم واحد ، أما أنا - ولسوء حظى - فقد مر على انتظاري ستة أشهر وكأنهن نسين الطريق إلى هنا ، وذات يوم نهض من نومه فى الصباح فوجد على غير العادة ورقة على قبر زمرد فجرى بشوق ودهشة والتقطها وقرأها ووقف لحظات مُسمرًا لا يتحرك من

قرأ حسين هذه الرسالة آلاف المرات ، وأخذ يحملق فيها بعينيه ويتمعن فى كلماتها وأسلوب كتابتها فلم يستوعب هذا الأمر بأى حال ولم يفهم محتوياتها، وفجأة قال مدعوراً هل زمرد على قيد الحياة ؟ ثم أجاب بالنفى قائلاً لا يمكن أن تكتب هذه الرسالة بنفسها فهى فى العالم الآخر، تنتزه فى الفردوس الأعلى، لكن كيف وصلت هذه الرسالة هنا ومن أحضرها ؟

ظل يفكر لفترة، ماذا يجب عليه أن يفعل الآن، فى البداية خطر بباله أن يعود إلى البيت بناء على نصيحة زمرد ، لكنه عاد فقال " لا ، فلا طائل من وراء هذه الفكرة، فكيف وبأى وسيلة أذهب إلى هناك، ولو افترضنا أننى ذهبت فمن يصدق هذه القصة؟ فالجميع سوف يكذبوننى ويسفهوننى.. لا.. لا يمكن أن أذهب ، وسوف أصبر وأحمل قدر طاقتى، طوال السنوات التى سأعيشها، لقد عاهدت نفسى أن أعيش الأيام الباقية لى فى الدنيا عند قبر زمرد ومع ذكراها، فزمرد تقول إننى سأعيش لمدة طويلة، فتحمل المشاق فى هذا المكان أفضل من التشرد ، وللأسف فإن زمرد ستحزن من أعماق قلبها ؛ لأننى لم أنفذ وصيتها ، ولكنى سأقدم لها اعتذارى وسأبلغها إياه عن طريق الملائكة الذين ينقلون لها أخبارى يوماً بيوم، ومن الممكن أن تكون واقفة فى ذلك الوقت، ترانى وتسمع كلامى ، ومن الممكن أن يكون المعنى قريباً للقياس (متطابق) تماماً ومن الضرورى أن تكون روحها هنا فى ذلك الوقت لتسمع الرد على رسالتى ؛ فلماذا لا أقول ما ينبغى قوله ؟

استحوذت هذه الفكرة على قلبه واتجه بنظره إلى قبر زمرد: وبدأ يقول "حبيبتى زمرد أنا هنا فى هذا القبر المنير حيث تسكنين، وليس عندى

تلك الورقة النورانية التي تحمل إليك رسالتى فى هيتها الترابية فاستخدمى نورك ونورانيتك بعناية، واسمعى عذرى بلسانى يا حورية الوجه ومحبوبة الله الجميلة وغواصة بحر رموز الوحدة والكثرة! أى عجب فى أن تشاهدى بنور عينيك الآن مسرحية ظلمى أو يصل إلى مسامعك الروحانية صوت تأوى وأنى الذى يفتت الكبد، فلا ترسلينى يا زمرد عند هؤلاء الناس ؛ لأن قصة روحانيتك وعصمتك وقبولك أسمى وأنبى من فهمهم وإدراكهم، ولن يفقهوا قولى فأبعدينى بحبك لى عن هذه الذلة والمسكنة ، وإذا كان لصوتى أثر على البلاط السرمدى فحاولى أن تستدعينى عندك وأن ترسلى الحور، أرسلينهم بسرعة لكى يبعدونى عن متزهمهم، إن روحى تهفو شوقاً إليك كطائر ذبيح، وأتوق للخروج من هذا القفص المادى ؛ فىا حبيبتي الفاتنة لاتجعلينى أتجه إلى مكان آخر بل استدعينى عندك " .

تضاعف حماس حسين حين أبدى مثل هذا الرأى حتى سقط على الأرض بعد أن بلغ به الإعياء مبلغاً ، وبدأ يرتد على عقيبه وعندما زاد وهنه احتضن القبر وغاب عن وعيه، وقد ضاعفت هذه الرسالة من حماسه وقضى ذلك اليوم فى غم وحزن أكثر من ذى قبل ، وكانت الرسالة التى أرسلتها زمرد من موطن الحور قد زادت حنينه إليها ورأى فى المنام حبيبته ساكنة الفردوس، وعنت له فكرة جديدة وهى أنه ربما يتقصد عالم الآخرة من علم وإيمان أى مسلم إلى حد ما مثلما كان الحال مع حسين ، فكانت الدنيا فى نظره هباءً مشوراً وبالنسبة له فقد كان يوجد فى برزخ ما بين عالم النور والظلمة، وكان مع إنكار الذات وعدم صبره يريد بأى شكل أن يمزق ملابسه المادية والجسدية ويصل إلى عالم النور ، واستمر على هذه الحالة شهراً ينتظر فى كل لحظة رسالة جديدة من زمرد ،

وفى النهاية انتهى وقت الانتظار ووجد رسالة كان هذا مضمونها: "يا حبيس الظلمة يا من تعيش فى البحث عن التوحد معى ، وأنت لا تدري أن هذا الأمر لا يؤثر على أدنى أثر فعلاقتى بك باقية فى ثوب روحى ، ولهذا السبب يعم السرور والبشر كل مكان فى هذا العالم ، ويبت الله فى قلبى متعة وحلاوة خاصة بعيدة عن الفهم والإدراك، إننى لا أستطيع أن أمحو التفكير فىك، ولا يمكتنى أن أبعد عن قلبى الحزن على المتع الروحانية فى ذكراك.

حسنًا ، إنك نجحت الآن فى الاختيار ، وليس هناك أى شىء يستطيع أن يُخرج من قلبك حبى أو ذكراى.

فلا تيأس واستعد للقاءى ، تذكر أن ذلك ليس المكان الذى ستجدنى فيه ؛ فأنا قريبة منك وبعيدة عنك أيضًا ، لكن هناك مسافة كبيرة على تلك البوابة التى ستأتى منها إلى والوصول إلى يستلزم رياضة ومجاهدة شاقة، فمن أجل هذه المهمة ستكبح جماح نفسك وتمارس الرياضة الروحية وتمضى على طريق طويل ، وعلى هذا فلا فائدة من الاصطدام بالجبال بدون مرشد أو شيخ ولا فائدة قط من البكاء والعويل ؛ فلو كانت لديك رغبة صادقة للقاءى فدع عنك هذا الوادى ، وأخرج إلى غار كبير فى الشعاب الغربية لجبل الجودى(*) والذى تحنث فيه كبار الصوفية لأربعين يومًا ، فالناس لا يعرفونه لكننى عندما جئت إلى هنا علمت أن

(*) يطلق الجغرافيون الإنجليز فى العصر الحاضر على جبل جودى اسم "جبل الإرادة" ، ويقع عند نقطة التقاء الحدود الإيرانية والتركية والروسية (المؤلف) .
- وهو جبل الجودى الذى استقرت عليه سفينة سيدنا نوح ، وورد ذكره فى القرآن الكريم (المترجم) .

النهاية ودع قبر زمرد بكبير حماس ولهفة ثم قبل الرسالة مراراً ووضعها على عينيه ثم دسها في صدره بالقرب من قلبه، وشمر عن ساعد الترحال. ومضى الممر الجبلى الضيق المظلم يتمهل وحذر شديدين حتى وصل إلى ذلك المكان الذى كان قد ترك فيه حماره وحمار زمرد مربوطين بالشجرة ؛ فوجدتهما ميتين من شدة البرد والجليد بعد أن عجف لحمهما ، وكانت عظامهما ملقاة تحت الشجرة، لكنه وقف مشدوهاً حين رأى بدلا من الحمار الميت حماراً نشيطاً مربوطاً إلى الشجرة وعليه سرجه ، وعلى غير ما توقع وجد هذه الركوبة ؛ فشكر الله الكريم الذى أظهر له فى الدنيا كثيراً من رموز عالم النور سلك طريقه ، وكان كلما وجد الطريق وعراً وموحشاً يترجل ويمسك بزمام الحمار ، وكان إذا وصل إلى الأرض السهلة المنبسطة يمتطى الدابة التى منحها له الله ، ويتجه مباشرة شطر الغرب ؛ لأن هذه السلسلة من الجبال تتجه من الشرق إلى الغرب ، وهكذا بدأ يطوى البادية حتى وصل إلى مدينة تبريز بمنطقة آذربيجان بعد شهرين من جوب القفار ؛ حيث صار على مسافة عشرة أيام من جبل الجودى، وكانت تبريز مدينة ذات رونق وبهاء ؛ فخطر على قلب حسين أن يمكث فيها يومين للتمتع ، ولكنه تذكر تأكيد زمرد له، فلم يمكث فيها ساعة أو ضحاها حتى رحل منها، وبعد عشرة أيام من طى الفيافى وقف تحت جبل الجودى الذى تناطح قمته الفلك.

وجبل الجودى هذا هو جبل شاهق الارتفاع ، وهو أعلى من معظم جبال إيران وآسيا الصغرى بل وسلسلة جبل قاف، تجول حسين فى البداية جولة كبيرة ثم خرج من الناحية الشرقية للقلعة المنيعة المكسوة بالثلج ، وبدأ البحث عن هذا الغار الذى يُتعبد فيه مدة أربعين يوماً فعثر عليه بعد

أن ظل يبحث عنه عدة أيام يقطع الشعب والصخور، وكان معظم القرويين يأتون من أماكن بعيدة لزيارة هذا الغار فيصعدون إلى فتحته المعتمة التي يحكى عن بركاتها الكثير من القصص الشهيرة ، وينظر إليه اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً بعين الاحترام والتبجيل ، وقد علم حسين قصة هذا الغار على لسان رائر من هؤلاء القرويين وعلم أن هذا المكان هو نفسه الذى سيؤدى فيه امتحانه الأول فى كبح جماح النفس وممارسة الرياضة الروحية ؛ حيث كان سيدنا إبراهيم قد عرف ربه فيه .

وعندما وصل حسين إلى فتحة هذا الغار كان عنده جمع من الزائرين الذين يعتقدون فيه من مناطق لبنان وجبل الجودى ، وبعد أن عادوا من هناك فى المساء غربت الشمس، سعى الله ثم دلف إليه وشغل بالرياضة بداخله ، وبدأ محاولة جعل صورة زمرد الخيالية مصباحاً فى الظلام الدامس هناك ؛ فوضعها أمام ناظره فى كل وقت ثم خرج فى الليلة الأخيرة لليوم الأربعين وقد حد من شدة جوعه بأكل العشب وأوراق الشجر ثم عاد وجلس فى تلك الخلوة .

فى النهاية رحل بطلنا المتحمس إلى الشام، وتراءت له مباني مدينة الخليل المقدسة بعد سفر ثلاثة أشهر، ودخل المدينة ، ووصل مباشرة إلى هذا الجُب (السرداب) الذى كان النزول إليه محفوفاً بالمخاطر ؛ لأن الناس يتزاحمون حوله فى كل وقت ، كما أن الخطورة كانت فى اعتقاد المجاورين بوجوب قتل كل من يرغب فى النزول إلى هذا الغار المقدس فأخفى حسين رغبته ، وحصل على الإذن منهم بعد أن أقام معهم صداقة بحيث يبيت بالقرب من مكان النزول ، وصلى مقيماً الليل لعدة ليالٍ ، لكن لم تسنح له الفرصة كاملة ؛ لأن معظم الناس يسهرون الليل عنده ،

لعادة المصريين القدماء ، وكان الجسدان فى تابوتين من الزجاج تبدو منهما الرهبة والجلال والرعب فى ذلك الظلام فارتعدت فرائص حسين بعدما رأى هذين الوجهين المقدسين ، ولم يجرؤ على أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام ، وظل واقفاً عدة لحظات خائفاً مشدوهاً ثم تجرأ ومضى قدماً إلى الأمام ؛ حيث جلس بين القبرين صامتاً يتطلع طوال الوقت إلى وجهيهما المهيّب وقد بلغ به الخوف مبلغاً بات معه من الصعب أن يتشكل أمام عينيه صورة زمرد ، لكنه كان فى أثناء عبادة الأربعين يوماً فى جبل الجودى يحاول أن يجعل صورة الحبيبة ماثلة أمام ناظريه وواضحة المعالم والقسمات ، وبعد قليل من الجهد ظهرت له صورة حبيته بين الوجهين المباركين .

الخلاصة أنه شُغل هناك بالعبادة ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرج فى أى وقت لينال ما يسد به رمقه مثلما كان الحال عند غار جبل الجودى ، ولما كان على دراية بهذا الأمر ربط فى ردائه قليلاً من الجبن لوقت الضرورة ، وقد أكل منها فى اليوم الأربعين وشكر الله وأكمل عبادة الأربعين يوماً هذه أيضاً بعد جهد جهيد ، وفى الليلة الواحدة والأربعين أراد أن يخرج فى صمت وبخبطى وثيدة دون أن يعلم أحد به ، وسلك الطريق إلى حلب ، وكان الناس قد استيقظوا ؛ فرآه بعضهم فأحدثوا ضجيجاً ، وهجموا عليه وأخرجوه من الغار ، ووقع أسيراً فى أيدي المجاورين الذين اتهموه بالوقاحة وسوء الأدب وكادوا أن يفتكوا به ، لكن للصدفة أو لحسن حظه أن حاكم مدينة الخليل كان قد لقى حتفه على يد أحد الفدائيين الباطنيين ، مع أن الناس كانوا يخشون من الباطنيين إلا أن الأمر الأكثر خطورة هو الانتقام الذى يعقب ذلك ، وبينما كانوا يعدون العدة للهجوم على إحدى قرى الباطنيين قامت جماعة كبيرة من الباطنيين

بالهجوم ، وإذ ذاك باغتنت مجموعة كبيرة من الباطنية الأهالي بالهجوم ، وأعملت فيهم القتل وسفك الدماء ، ومات كثير من الناس ، وفى أثناء هذا الاضطراب والهرج والمرج تحرر حسين من قيد المجاورين ورحل إلى حلب .

دخل حسين حلب فى مساء اليوم الثامن ، سأل العابرين فى الطريق السبيل إلى حى رامنه ومسجد الشماتين ، وعندما وصل هناك ألقى عصي الترحال ، وبعد أن أكل وشرب فى أول الليل أدى صلاة العشاء ثم استلقى ونام ، وبالرغم من أنه كان متعباً إلا أن الشوق لوصال زمرد كان كل شيء ؛ فلم يكد أكثر من نصف الليل ينقضى حتى فتح عينيه وظل يتقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى الصباح فى انتظار صلاة الفجر ، واستعد بالوضوء قبل الأذان ، وجلس على الباب ، وأخذ يطالع وجوه القادمين ، وقد تراءى له أصحاب البيوت المجاورة وقد اصطدمت أقدامهم وتعثرت بسبب الشعور بالنعاس عندما انصرفوا إلى الوضوء ، وانتبه على حسين أكثر الناس لأنهم كانوا على شاكلة الشيخ الشريف على وجودى ، وهكذا لم يكن واثقاً فى كل المرات ؛ لأنه إذا توفرت بعض العلامات فى أحد القادمين لم تكن تتوافر فيه سائر العلامات الأخرى ، وفى النهاية بدأ قلبه ينقبض وأخذ يحدث نفسه فى صمت : أنا لست متأكداً من أننى سألتقى بالشيخ ، وما أن نطق بهذه العبارة حتى جاء شخص له نفس أوصاف الشيخ موقف ووضع يده على ظهره وابتسم ثم قال بلهجة مطمئنة وبلطف وعطف : أنا أعرف يا حسين أنك جئت تبحث عنى ، وعندما سمع حسين هذا خرَّ على قدميه ، وبعد أن قبل أقدام الشيخ "الشريف على وجودى" بدأ يزرع الدموع عند أقدامه قائلاً : ساعدنى يا سيدى ، (أنت وحدك تستطيع أن ترشدنى إلى طريق الحق) فأنت وحدك الذى تعرف الصراط المستقيم الذى يستطيع الإنسان إذا سلكه أن يعرف الله وعالم الأرواح .

قال الشيخ: (فى جلال وحبور): ما هى عزيمتك وما مدى شجاعتك حتى تستطيع فهم الرموز المختلفة لهذا اللاهوت غير الموجود(*) وأنت قطرة ضئيلة غير صافية بالنسبة لبحر الوجود ومحيط الوحدة.

حسين : لا غرو، فليس لى أى وجود، ولكن عندما تمسك بيد سباح بحر الوحدة فلا عجب فى أن أعبّر هذا البحر الفياض الزاخر ، وبعد أن قال هذا بكى ، وبدأ يلثم قدم الشيخ.

تناقص جلال الشيخ بعض الشيء فأمسك بيد حسين ورفعته إليه ثم ضمه إلى صدره وذلك صدره بصدره بقوة شديدة عدة مرات وقال: حسنًا اتبعنى ، وسأختبر صبرك وتحملك، وعندما أدرك مبلغ صدق طلبك سأضمك عندها إلى حلقة أتباعى.

وبعد أن سمع حسين هذا الكلام رفع رأسه شاكرًا وقبّل يد الشيخ وذهب معه وشاركه الصلاة وبعد الصلاة ، اصططحبه الشيخ على وجودى معه إلى الخانقاه الخاصة به، وكانت على مسافة قصيرة من المدينة فى مكان، تعجب حسين بعد أن راودته هذه الفكرة وهى أنه ليس لمسجد الشماتين ميزة حتى يذهب الشيخ إلى هناك لأداء صلاة الفجر، ولكى يستفسر عن هذا السر سأله بأدب هل حضرتكم تأتون كل يوم للصلاة فى هذا المسجد؟

(*) يعتقد أصحاب الفرقة الباطنية أن نسب أى صفة إلى الله يعد كفرًا بالله، أما الصفات المذكورة فى القرآن فى الظاهر فهى الصفات التى منحها الله للمخلوقات فهى من هذه الناحية هى الصفات التى منحها الله للمخلوق يُقال لله نُور فهو منور وبصير فهو مُبصر، الله يمنح النظر .. وهكذا يقال الموجود ؛ فالمقصود منه الواجد ثم ينقون هذه الصفات بعد نسبتها إليه ؛ أى يقولون موجود وغير موجود (المؤلف).

الشيخ : (بلا اهتمام) لا . . ذهبت إليه اليوم فقط .

حسين : ربما ذهبتكم إلى هناك مصادفة لأمر ما؟

الشيخ : (بقليل من الغضب) ولا تتجسسوا ؛ لا يجب البحث عن المعنى الخفى لتلك الرموز، فلو توفر الشوق الصادق لا نكشف الأسرار من تلقاء نفسها فى وقت ما، والآن وقد خرج من فيك السؤال فسأخبرك، اسمع، إن الناس الذين تنعكس على قلوبهم أنوار الله السرمدية والأزلية، ينكشف عن أعينهم ستار الحجب ، و يلقى نور الأنوار بأشعته لتصل أشعة عيونهم إلى هناك أيضًا ، فجسمى المادى كان فى تلك الخانقاه، لكن الأشعة القوية الحادة لتلك العينين كانت فى جانب عند جبل البرر عندما كنت تبكى محتضنا قبر زمرد ، وفى غار إبراهيم فى جبل الجودى حينما كانت أمامك صورة زمرد فيما كنت تبحث عنى فى قلبك ، كانت سهام تلك الأشعة فى الغار (الجب) ، وحين كنت ترى وجه زمرد بين وجهى سيدنا يعقوب ويوسف عليهما السلام رأيتك بلا حول ولا قوة ، ولما كنت أسيراً فى أيدي مجاورى مدينة الخليل أرسلت أصدقائى لكى يساعدوك ؛ حيث أغاروا على أهل المدينة فسنحت لك الفرصة للمجئء إلى هنا .

حينما كان الشيخ يتحدث كانت عيناه تلمع فى حدة لم يستطيع حسين أن يتحملها فوضع رأسه على قدمى الشيخ ، وبدأ يقول فى حماس المجدوب : أنت تعرف كل شيء، لا يخفى عليك أى سر، وتعلم كذلك ما آمل وأتمنى .

فقال الشيخ (فى حماس وحمية) أعرف كل شيء ، إلا أنه لم يحن الوقت بعد لإظهاره، فظهر هذه الرغبة على لسانك مرهون بوقت خاص

وحالة خاصة ، ولا بد أن تكون فى حالة صمت الآن. أصيب حسين بالرعب بعد أن سمع هذا الأمر وبدأت فرائضه ترتعد بعد أن سقط على الأرض، وبعد فترة قصيرة أخذ الشيخ بيده، ومسح بيده المباركة على صدره وعينه مواسياً ثم قال: "يا حسين ستظل فى صحبتى وتسكن الخانقاه الخاصة بى ، وسوف تصل سريعاً إلى هدفك بقدر ما تأخذ منى وتمثل لأوامرى التى هى فى الأصل أوامر إلهية ، وذلك بنشاط وهمة وبلا عذر، لكن عليك أن تعلم جيداً أن نفْسك وقلبك غير مؤهلين الآن للتنوعات الربانية والتحويلات الطبيعية ، ويمكنك فهم الأسباب و العلل إذا ما تمثلت دائماً قصة موسى والخضر ، وتأكد أن لكل ظاهر باطنا والنتائج دائماً تكمن فى الباطن، وأن أهل الظاهر لا يستطيعون فهم رموز القدرة، والروح تنال العقاب والجزاء وهو ما يظل يتصرف فى الباطن ، ويكون دائماً داخل القلب وحاكماً على الإرادة ، وستجد هذه الأعضاء و الجوارح الظاهرية فى هذا الجوهر وستظل فيه دائماً ، ولهذا فإن حركاتها ليس لها أى اعتبار ؛ فالقاضى والمفتى كلاهما جاهل وناء عن نور الأنوار الإلهية ، ويصدران أوامرهما فى ضوء الحركات والأفعال الظاهرية، فالألوهية فى قصة موسى والخضر لم تؤيد موسى فى حب الظاهر بل قضت لرأى الخضر الذى كان يفهم الرموز الباطنية والإرادة الصمدانية ، وهكذا فانظر إلى سيدنا إبراهيم عندما جعل زوجته أختاً له اضطرب أهل الظاهر كثيراً ؛ لأن عصمة الرسول قد اعتراها الخلل والنقص ، إلا أن هذا الشيء يدل على جهالتهم ؛ لأن الله ينظر إلى ما كان فى قلب إبراهيم.

الخلاصة يا حسين عليك أن تدرك جيداً أن لكل ظاهر باطنا ، وأن الله نصير للباطن ، ويجب عليك طاعة الشيخ والمرشد طاعة عمياء مثل امتثال موسى لرغبة الخضر.

حسين : (بعد أن وضع يده على صدره) لاشك أنتى سأمتثل مثله ،
ولكن هل يجب ارتكاب المعاصى والأعمال الخارقة بلا فهم .

الشيخ : (فى غاية الجلال ويعد أن احمرت عيناه) أتظن أن المرشد
سيأمر بك بعمل كبير عظيم؟

حسين : (وهو خائف) لكن من الممكن أن يبدو هذا الفعل للمريد
والمعتقد ذنباً .

الشيخ : نعم ، ممكن ، لكن باطنه ليس ذنباً ، والنتائج تكون مترتبة
على الباطن فقط .

حسين : لكن ذلك الباطن يكون فى قلب الفاعل والمرتكب ، فأنا
أرتكب فعلاً ستكون نتائجه مترتبة على هذه النية ؛ فالذى فى قلبى إذا
عرفت أن جانبه الباطنى سيئ فستكون نيتى سيئة كذلك ، وعندما تكون
نيتى سيئة فيجب أن تكون النتيجة مطابقة لهذه النية .

الشيخ : (بعد أن ثار وهاج واحمرت عيناه) فهل فى رأيك يمكن أن
تشك فى نية الشيخ؟ وقبل هذا إنكار التسليم بالسر اللاهوتى؟

حسين : (بعد أن خر على قدم الشيخ) : مطلقاً ، ولكن حديثى
هذا "ليطمئن قلبى" (*) لن يأتى الله بذلك اليوم الذى أشك فيه فى نية
الشيخ .

(*) إشارة إلى الآية الكريمة فى قوله تعالى : (أولم تؤمن؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن
قلوبى) .

بعد أن سمع الشيخ هذا الجواب رفع حسين وضمه إلى صدره ومسح بيد الرحمة على ظهره وقال: اسمع، لاشك أن الظنون ستأتى إلى قلبك، ولكن عندما تمضى قدمًا على طريق الباطن ستدرك أن قيمة المريد لا تزيد عن كونه آلة بلا روح، واعلم أن المريد مثل سيف فى يد الشيخ، ويمكنك أن تفهم أن السيف إذا انهال سيططح برأس من يشاء، إلا أن المدح أو الذم لا يمكن أن ينسب إلى السيف، بل إن هذه الأشياء تنسب إلى من أمسك بالسيف، وتأكد أنه ربما زال شكك الآن وبدأت تدرك أن أفعال المريد تتعلق بالجانب الباطنى لنية الشيخ لا إلى إرادة المريد نفسه، وسوف يصقل فكره بعد طى (مدارج) الإرادة الإنسانية بعدما يبدى الطاعة والهمة، وعندئذ سيصل إلى درجة القرب، وتكون نيته حينذاك جديرة بالاعتبار، لكنه مادام يطوى درجات الإرادة فإن نواياه وإرادته ليس لها أى اعتبار، وحتى ذلك الوقت يكون الشيخ والمرشد مسئولاً عن عمله.

حسين (بعد أن قبل يد الشيخ بحماس وحمية): صحيح ولا شك فى ذلك، لقد رفع حجاب الحقيقة عن عيني، ولن أبدى عنراً فى تنفيذ أى أمر.

الشيخ: يا حسين إن المريد ألقى على عاتقه مسئولية حساسة، فهل هناك أكثر من هذا كبحاً لجماح النفس بحيث ينفصل الإنسان كلية عن أفعاله بعقله وقلبه، ولكنك لو أمعنت النظر ستعلم أن هذه الأحكام الإلهية مطابقة تماماً لسرعة العصر؛ فالأعمال التى نفذها الخضر التى استبعد فيها موسى - كان جانبها الباطنى فى قلب الخضر فقط، وكانت فى رأى موسى معاصى حقيقية، لكن لا نستطيع القول إن موسى أذنب وشارك فى مثل هذه الكبائر، فلماذا كان هذا فقط؟ لأنه فى العالم الباطنى كان الخضر المرشد وموسى المريد.

أن يأتى هؤلاء لزيارة الشيخ مرة كل سنة بعد أن يسافروا مسافات طويلة ، فيعودون بعد أن يستمعوا إلى الأحكام الجديدة العجيبة والغريبة التى ينصاعون لها على الفور ، فمن ناحية يأتى مريدو خراسان ومكران وسيستان وفارس ورودبار وآذربيجان والعراق العربى والعجمى ، ومن ناحية أخرى يأتى مريدو عمان وحضر موت والحجاز واليمن وزنجبار ومصر وطرابلس الغرب والجزيرة وجميع بلاد أفريقيا وآسيا الصغرى ، ويأتى هؤلاء الناس بملايس وأزياء مختلفة ، يلتقون بالشيخ فى معظم الليالى خفية ثم يرحلون قبل انبلاج الصبح ، وكان حسين ينظر إلى هذا الأمر باحترام وتقدير بالغ ؛ فقد كان مريدو الشيخ والمغتربون من فضله منتشرين فى جميع أنحاء العالم يعيشون فى الظاهر حياة البساطة ونكران الذات مع مالهم من سطوة وتأثير بالغين ، وذات ليلة اجتمع حول الشيخ نحو عشرة مريدين ، وانتحى حسين ركنا بأدب جم ، وانفتح أكبر فيض للرموز الحكمية والروحانية على لسان الشيخ ، وقد حضر شخص من مصر قال بأدب فى لهجة يشوبها الشك : "لم أستوعب هذا فكيف يستمتع الإنسان بمتع الجنة بعدما يترك هذا الجسد الترابى؟ قال الشيخ مجيباً بقدر من الغضب "تماماً مثلما تتمتع بهذا الجسم فى الدنيا" .

فقال كيف هذا واللذة والآلم من متعلقات الجسم فقط؟

قال الشيخ : (بعد أن تحمس قليلاً) مع أن الروح بلا جسد ، لكنها تمضى كأنها فى الجسد .

قال الشخص : وكيف يمكن هذا؟ فما دامت المادة ليس لها كثافة ؛ فهل يمكن أن يكون له حيز؟

المجردة قبل الحلول فى الجسد هذه الصلاحية وهذا الاستعداد ؛ أى لم تكن لتتمتع بالفرح والسرور المادى ؛ فقد كانت فى ذلك الوقت روحاً مجردة، غافلة تماماً عن كيفية الاستفادة من المتع والملذات ، وقد وضعت فى هذا الجسد الترابى فقط لتتعلم هذا الأمر لفترة زمنية محدودة وهى الفترة التى تطلقون عليها اسم الحياة، ولحصول أرواحنا على درجة الكمال فقط ، فإن الروح اللطيفة تنشئ روابط وعلاقات مع هذه المادة، وعلى هذا تنشأ معرفة بكل أنواع اللذات وبكل صنوف الآلام، وبعد الانفصال عنها، عندما تريد أن تتشكل وتتحيز يمكنها أن تتأثر باللذة والألم، وعلى نفس النسق يمكن لأى شخص أن يخطئ بهذه القوة وهذا الاستعداد بعد طى المداخل الروحانية ، وفى حالة بقائه فى جسده فإنه يغيب عن نفسه أو عن شكل الروح المجردة غير المتشكلة وغير المتحيزة ، وهكذا فإن الروح الإنسانية عموماً تتعبد عبادة الأربعين ليلة بعد أن تجس فى حجرة هذا الجسم الترابى وبعد مغادرتها إياه عندما تريد أن تظهر بنفسها فى شكل أو جسم ، وحين تصل إلى هذه الدرجة من الكمال تكون ظاهرة وواضحة فى الشكل الذى تختاره ، ولعلك سمعت عن كثير من الصوفية العظام والشهداء ؛ حيث كانت أجسادهم فى زوايا القبر بينما الروح ظاهرة أمام أنظار معظم الناس فى شكلها أو فى شكل آخر. وهذه مجرد روح قد جاءت بدون جسم لتحصل على هذا الكمال والمقصود منها جبريل ، والذى يظهر فى هيئة كلب أو فى أشكال أخرى أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه ليس هناك أحد فى هذا العالم عارف بسره سوى ؛ أى كيف حصل جبريل على هذا الكمال الروحى ؛ ففى حديثه قال اسمع (لتعلم) أن ولادة المسيح ترتبط بهذا الرمز. لقد كان جبريل هو الذى حل فى جسد مريم الصديقة، وبعدها تشكلت صورة المسيح عليه السلام ثم

بلغ ذروة كماله الروحي في فترة زمنية وجيزة وقد انخدع المسيحيون بأنه كان الله ، لكنه لم يكن سوى روح فقط كانت من جسم موجود فيه روح أخرى ، وقد صعد إلى السماء بعد أن اكتسب المواهب الجسمانية ، لقد كانت روح المسيح روحاً أخرى كانت في جسمه ، لكن إلى جانب هذا فإن روح جبريل الآن قد حلت في صورته ، وقد ظلت عدة أيام ثم اختفت بعد أن ظهرت عظمة الألوهية في جسم المسيح ، فما كان إحياء الموتى من عمل المسيح ، بل كانت مجرد نتيجة مسلمة وعلامات للقوة الملائكية ، وقد تمت تجربتها للناس كذلك في عهد موسى (*) عليه السلام ، لكن الذين لم يعطهم الله عيناً بصيرة لا يمكن أن يفهموا ذلك حتى اليوم ، وإنما يضطربون بمجرد ذكر معجزة المسيح ، وهكذا يمكن أن تكون مهارة التشكل والتحيز ، هي الهدف الذي يأتي كل روح إلى الدنيا لبلوغه ، ومن هنا فإنها تنال الثواب والعقاب على سلوكها بعد الرحيل فتكون في الجنة أو في النار طبقاً لكمالها .

فأنت جاهل بمواهبى وقدراتى ، أنا ذلك الشخص الذى هو أنا بنفسى لا كل شخص أستطيع أن أصل إلى الملأ الأعلى وأرى كل شيء هناك ، بمواهبى وقدراتى أستدعى أشكال الجنة الروحانية أمام هذا الجسم الترابى .

وبمجرد أن قال الشيخ هذا الكلام بكى حسين وانتحب وأخذ يتضرع أمام الشيخ ثم خر على قدميه ، وقال يا سيدى أنا لا أشك فى أى مسألة ،

(*) ينكر بعض المفسرين أن سيدنا موسى عندما دخل بحر القلزم أراد فرعون التقدم ليعقبه ، إلا أن فرسه لم يتقدم ، وقد ظهر فى ذلك الوقت جبريل معتمياً صهوة جواد ، وأخذ يتقدم بينما بدأ فرس فرعون يهوى معه إلى قعر البحر ، وكان السامرى يرفع الطين تحت سنايك جواد جبريل ، وبإلقاء هذا الطين بدأ القول بالعجل الذى عبده بنى إسرائيل (المؤلف) .

ولكننى أتمنى أن أدخل اللجنة وقد حان الوقت لكى أعلن عن رغبتى لك وأنا متأكد أننى لن أظل محروماً.

ظل حسين فترة من الوقت ساجداً عند أقدام الشيخ ، إلا أن الشيخ كان قد امتلأ بحماس جعله يقف صامتاً لعدة ساعات، ثم رفعه وأجلسه وقال: يا حسين ، لقد أفدت إفادة كبيرة من حماسى فى ذلك الوقت ؛ حسناً ، الآن جاء وقت التأمل وغداً الخلوة ثم الالتماس والطلب ، لا شك أن الوقت قد حان لكى تجنبى ثمار هذه المعاناة وتلك المكابدة وقد بقى أمامك الآن امتحان، وهو امتحان صعب، لأرى إلى أى مدى تسلم يدك بنفسك إلى المرشد، ولتعلم أن التأمل يكون بقدر امثالك لأمر مرشدك، ولعلك تتأخر فى الحصول على مرادك بهذا القدر.

انصرف المريدون جميعاً بعد أن استأذنوا من الشيخ، وانصرف حسين كذلك، وتعمد على فراشه ، لكنه قضى ليلته فى غاية القلق وضاعف الانتظار من نار الشوق ، وفى الصباح وبعد صلاة الفجر كان الشيخ على وجودى قد جلس بعد أن فرغ من أوراد الصباح فخرّ حسين على قدميه وصاح: الآن ليس لى مقدرة أكبر على الصبر، وأنت نفسك عليم بكل الأحوال ، ولست بحاجة إلى الإفصاح عنها، لكن بالله عليك أرجو أن تقابلنى بزمرد سريعاً.

الشيخ : حسناً سوف تلتقى بزمرد ، ولعلك تنجح فى وصلها ، ولكن عليك أن تستعد لذلك استعداداً جيداً.

حسين : مستعد بالقلب والروح.

الشيخ : انظر ، ولا تفكر .

حسين : مطلقاً .

الشيخ : ولا ينشأ فى قلبك شك أو فساد عقيدة .

حسين : لا ، قط .

الشيخ : هذا عمل من قبيل الجرأة والشجاعة .

حسين : سأجود بالروح .

الشيخ : وفيه مخاطر أيضاً .

حسين : حسناً ، فليكن .

الشيخ : فلتسمع .

حسين : سمعاً وطاعة .

الشيخ : ليس الآن ، ولتقوى قلبك .

حسين : قلبى قوى جداً .

الشيخ : إنى أعلم أنك قرأت الكتب الدراسية على الإمام نجم الدين النيسابورى ، وأنت من مريديه أيضاً .

حسين : (فى دهشة) لاشك ، لقد شاركت فى حلقاته لمدة خمس سنوات كاملة .

الشيخ : ما مدى احترامه وتقديره فى قلبك؟

حسين : اعتبره - بعدك - أكبر عالم وأعظم متصوف وأزهد الناس وأكثرهم تقوى من بين العالمين كلهم .

الشيخ : حسنًا ، فلتذهب ولتشتبك في مجلسه ، وعندما تسنح الفرصة اقتله .

وما أن نطق الشيخ بهذه العبارة حتى أطلق حسين صيحة وغاب عن وعيه .

الباب الثالث

السفر إلى الملاء الأعلى

كان الإمام نجم الدين النيسابوري من كبار أئمة ذلك العصر، اشتهر في زمانه بالعلم والكرم والتقى والورع، ولا يوجد مكان إلا وله فيه تلميذ تكون له إمامة إحدى جماعات المسلمين الكبرى، ولم يكن أستاذ حسين ومرشده فحسب بل كان عمه أيضاً، وكان موطنه الأصلي مدينة آمل، إلا أنه خرج من بيته في صغره شوقاً لطلب العلم، ووصل إلى بغداد بعد أن شارك في مجالس العلم الكبرى في العالم، وظل يتلقى العلم في المدرسة النظامية لفترة طويلة ثم انصرف إلى طلب العلم في البلاد الشرقية؛ حيث اشترك في المجالس العلمية في بخارا وهراة، وبعد أن اغترف من فيض مجالس العلماء هناك عاد إلى نيسابور، واستوطن بها، وكانت نيسابور في تلك الأيام من أكبر مراكز العلم والمعرفة ومعقلاً لأقطاب التصوف المعروفين؛ أما حسين فقد كان طيب النفس قريباً من الله؛ لذا تملكته الحيرة والدهشة والاضطراب بعد سماع الأوامر بالقتل، وسقط مغشياً عليه.

لم يحاول الشيخ على وجودى أن يعيد حسين إلى وعيه، بل تركه هكذا ملقى على الأرض، وظل منتظراً فترة من الوقت حتى يسترد حسين وعيه من تلقاء نفسه، ويعدده بأن ينفذ ما أمر به، ولكن عندما تأخر به الوقت فى استرداد وعيه تركه الشيخ وانصرف إلى حجرة أخرى، وفى غضون ساعتين عاد لحسين وعيه فتذكر أمر الشيخ الواجب التنفيذ، لكن حالته كانت أقرب إلى الغوص فى بحر الغفلة، لكنه تماسك ونهض وأخذ ينظر فى كل صوب وحذب، وكان الشيخ على وجودى غائباً، وكان وحيداً فأخذ يفكر فى الأمور السابقة ووقع فى حيرة: ربما أخطأت فى فهم قصد الشيخ لاشك أنه يبدو كذلك؛ فمثل ذلك الشيخ الطيب النفس المدرك للحقيقة ربما لا يأمر بهذا النوع من الظلم والإجحاف الشديد؟ أيكلفنى بالقتل العمد؟ وقتل من؟ الشيخ نجم الدين النيسابورى، وليس على وجه الأرض فى ذلك الوقت من هو أعلم منه، فمن المؤكد أننى سمعت خطأ، ولكن فلنفرض أن الشيخ أمر بهذا فما عساي أن أفعل فهل أقتل إمامى ومرشدى وعمى الورع؟ (بعد أن اختلج قلبه) يبدو أن هذا أمر صعب جداً! ماذا ستقول الدنيا؟ أما فى القرآن فقد ورد قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) إننى لن أجنى من تنفيذ هذا الحكم إلا الخزي والعصيان فى الدارين، ولا يبدو منه أى فائدة إلا "خسران الدنيا والآخرة" ولا شئ آخر، لكن الشيخ كان قد قال إن لكل ظاهر باطناً فمن الضروري أن تكون فيه فائدة تذكر، فهو فى الحقيقة يعرف رموز القدرة (الإلهية)، أنا لا أستطيع المقارنة بين الإمام نجم الدين والشيخ على وجودى، ولا أتخيل أن تكون نية الشيخ على وجودى سيئة، فأى عجب فى هذا لو أمر بارتكاب عمل مكروه فى الظاهر من أجل مصلحة روحانية، فإذا كان هذا هو الحكم فى الواقع فلا يجب على التفكير فيه،

إنه تخويل من المرشد، وهكذا أخذ حسين الخنجر واتخذ طريقه نحو المشرق ليقتضى على أستاذه، ووصل إلى بغداد بعد شهر ونصف ، وسار من هناك إلى أصفهان ومنها وصل إلى نيسابور بعد شهر ونصف ، وحضر إلى مجلس درس الإمام نجم الدين وكان قد خرج من حلب منذ أربعة أشهر، وقد عرفه الإمام المذكور فعانقه وعامله بشفقة ولطف ، وكان قد علم من المراسلات المحلية أن حسين قد رحل بفضيحة بعد أن اصطحب معه بستًا شريفة ، ويعد أن تذكر هذه الواقعة تأسف وقال: يا حسين لم أكن أظن أنك تنتهك المحارم بعد تحصيلك للعلم بشوق وشغف.

حسين : يا عمى أنا لم أخذها بنية سيئة ؛ فقد كنت أعزم العقد على زمرد ، وكانت هى فى غاية الشوق للحج، وكرهت منعها بسبب علمى بالدين ؛ فاصطحبتها معى بلا تفكير ورحلت.

الإمام : وأين هى الآن؟

حسين : قُتلت على يد الخواريات فى شعاب جبال طالقان.

الإمام : (بعد أن ابتسم) ما الفائدة من اختلاق القصة الباطلة التى لا أساس لها ؟ لن أقنع بهذا الكلام.

حسين : أنا لاأختلق هذه القصة ، وتستطيع أن تدرك أنه ليس فى وصفى أى افتعال.

الإمام : حسنًا ، لآى غرض جئت هنا الآن؟

حسين : للمشاركة فى حلقة درسك ، وقد أردت أن أترك العلائق الدنيوية حزنًا على زمرد ، وأرغب فى أن أكرس بقية حياتى فى تحصيل العلم.

الإمام : لو كان الأمر كذلك ، فإله يبارك وغبتك ويوفقك ،
ولتخلفنى من بعدى على حلقة الدرس هذه .

والخلاصة أن حسيناً انضم إلى المغتربين من فيض علم الإمام نجم الدين النيسابورى ، ولأنه كان ابن أخيه ؛ لذا زادت مكاتبة فى قلب الشيخ يوماً بعد يوم ، لكن حسيناً كان يبحث عن الفرصة المناسبة لتنفيذ الأمر ؛ لأن الإمام كان يظل معظم الأوقات فى جمع من طلبته ومريديه ، وقد انقضى على هذا ثلاثة أشهر دون أن يجد الفرصة لإخراج الخنجر ، وكان قد مر من الشهر الرابع بضعة أيام عندما أصابة الحمى الإمام فتوقف عن الدرس والتدريس لعدة أيام متصلة ، وقد تفرق أكثر الطلبة هنا وهناك فى زمان هذه العطلة ، إلا أن حسين قد أبدى سعادة وحماساً زائداً فى تمريض الشيخ ، وظل ليلاً ونهاراً مشغولاً برعايته بأداء هذه الخدمة .

ولما كان اليوم السادس من أيام الحمى التى نزلت بالإمام ، كان الشيخ وحيداً فى حجراته ، وفى إحدى الليالى مصادفة كان معه حسين ، وكان قد انقضى هزيع كبير من الليل والإمام ممدد على فراشه يتحدث إليه بصوت واهن ، وكان حسين اليوم أكثر صمتاً خلافاً للعادة بينما كان من المفروض أن تكون أحاديثه مفعمة بالدموية لكن عدا هذا لم يخرج من لسانه أى لفظ آخر ، وقد تعجب الإمام لهذا عدة مرات بل وسأله (ذات مرة) قائلاً : لماذا أنت صامت اليوم؟ لكن حسيناً راوغ وقال " هكذا " ، وظل حسين ساكناً ثم خرج وأخذ يستطلع النجوم ليرى كم انقضى من الليل ، وحين انتصف واطمئن حسين إلى أن أحداً لن يأتى حتى الصباح تأكد تماماً من هذا الأمر فأحكم غلق باب الغرفة وذهب عند الإمام الشيخ فرأى أن عينه مغمضة فظل واقفاً لفترة من الوقت ينظر فى وجهه ، وكان

قد استبد به الغضب فأخذ يعد العدة للهجوم على أستاذه ومعلمه . لم تكن له دراية على الإطلاق بمثل هذه الأعمال الدموية وضغط على قلبه يريد أن يغريه بارتكاب هذا العمل ، لكن الأفكار كانت تتصارع بداخله حتى فترت همته مرارا وكانت الأقوال الوهمية تتراءى له فى كل جوانب الحجرة حتى تملكه الرعب والفرع ، وبدا كأن ملائكة أو أى نوع آخر من المخلوقات الغيبية تحرس الإمام ، وكانت عيون الإمام النوراتين تشفع له أحيانا وتبدو مفزعة مهيبة تُرعب حسينا أحيانا أخرى ، ولكنه سيطر على كل هذه الأفكار جميعا ، وبعد أن أخرج الخنجر الذى أعطاه له الشيخ على وجودى نظر إلى نصله ، وتشجع فجأة وجثم على صدر الإمام وانتبه الإمام وفتح عينيه وصاح ، لكن حسينا وضع يده اليسرى على فمه بينما نفذ الخنجر فى قلبه .

وقاضت روح الإمام فى لحظات ، وسالت الدماء فى أرجاء الحجرة ، وبينما كانت الجثة بلا روح ملوثة بالدماء ملفوفة فى الملابس وملقاة على الفراش ، وكان الأمر تم فى بساطة شديدة ، ومع هذا فقد ارتعد قلب حسين بشدة فظل مضطربا ينظر فى خوف ورعب إلى جثة الشهيد المظلوم ، وفى النهاية ترك الغرفة على حالها وهو مشدوه من المنظر المخيف وألقى نظرة أخيرة على الحجرة ثم فتح الباب وخرج ، وأغلق باب الحجرة من الخارج وخطا خطوات صامته ثم مضى بعيدا ربما لم يستغرق وقتا لكى يتعد عن خانقة المدينة وكان يحيط بنيسابور سور قوى محكم تغلق بوابته فى الليل ، ولهذا كان الخروج من المدينة فى ذلك الوقت مستحيلاً ، كنه خاطر بنفسه وخرج فى الظلام الخالك ، واتجه نحو الباب وهرب بسرعة ليتعد عن المدينة قبل أن يدركه الصباح فلا يقوى عليه أحد .

وفى اليوم الثانى حين كان يمضى بسرعة كأنه يطير يقطع الصحراء ويشق الفضاء الغربى لخراسان، كان ضميره يؤنبه قليلاً وتذكر ذنبه وظلمه الذى كان يطل عليه من كل جانب، فيحاول أن يبعد باستمرار عن نفسه فكرة الذنب، وكانت هذه الجملة تتردد على لسانه بآهة "أنا مذنب كبير"؛ وظل قلبه يلعنه، وظل إيمانه يوبخه، فكان صدى صوت اللعنة واللوم يتردد فى أذنه، وكان كلما انتبه قال "الشيخ على وجودى هو المسئول عن هذا الفعل"، لكنه كان يقول فى نفسه لقد قضيت على الإمام يدي وأخذه بقسوة قلبى؛ فكيف تقع المسئولية على شخص آخر، وأوقع ذلك الشك فى قلبه فساوره الشك فى مبادئ الشيخ أيضاً، ورأى أن مكانة المريد فى يد المرشد هى مجرد آلة غير مسئولة، هى بلا روح وبدأ يقول: "لو أن مسألة علماء الدين هذه صحيحة وهو أن الثواب والعقاب اسمان لتلك اللذة والألم، وهى من نتائج أعمالهم، وتنشأ بنفسها من لوم القلب ومن الضمير الإنسانى فلا يمكن أن يكون عمل إنسان مسئوليته إنسان آخر، افترض أننى قمت بعمل ما وهو طيب (جيد) فى رأى أى ناصح أو مشير لكنه فى رأى سىئ يستحق اللوم فسوف يلعننى قلبى على ارتكابه بالضرورة، وعندما عبّر عن ألم تلك اللعنة بالعذاب فى إصلاح الشرع فلاشك أننى لن أنجو من العذاب ومن جهنم، والخلاصة هى أن قلب حسين حدثه بهذا؛ فأخذ يندم ويتأسف على ما فعل وقد ابتلى بمشكلة دينية شائكة، ومع هذا فقد ظلت مكانة الشيخ على وجودى عالية فى قلبه وقد رأى العديد من كرامات الشيخ على ولا يمكن أن يسئ الظن بها بل إنه يخاف فى بعض الأحيان؛ لأن الشيخ يعرف الغيب من أحوال قلوب الآخرين، وسوف يغضب لو عرف شكوكى هذه، وسأرحل من هنا ومن هناك كذلك؛ فبعد ارتكاب مثل ذلك الجرم العظيم أظل محروماً من وصل زمرد وعندئذ ستملكنى الحسرة.

اعتمل هذا النوع من الأفكار والتصورات فى قلب حسين فأغرقه فى بحر الندم وتحسر على ما اقترفه من ذنب ودخل مدينة حلب وذهب أمام الشيخ وخر على أقدامه حتى رفعه وضمه إلى صدره ، وقال له فى حماس رائد : يا حسين لقد نجحت فى امتحانك نجاحا منقطع النظير وزمرد الآن فى شوق إليك يفوق شوقك إليها ؛ إن نور الأنوار للأنوار الأولية انعكس فى قلبك انعكاسا كاملا ، وهذه الحفنة من تراب جسمك جعلت لديك استعدادا وصلاحيه تمكثك من تحمل تجليات عالم الأنوار.

حسين : لكن يا سيدى إن هذا الفعل الظالم يشير الريب والشبهات فى قلبى باستمرار.

الشيخ : (بعد أن تملكه الحماس) لاشك أنه سوف يشير ذلك ويمكن فصل الروح عن كثافة هذه المادة بصعوبات جمة ، وهذا فقط هو الذى يمكن أن يشير الشبهات والشكوك ، وهو المركز الإشراقى ونسج الحياة السرمدية على الرغم من كونه غير حى ، وهذه الروح الجسدية المقيدة فى الجسم يمكن أن تتجلى صور عشقها بصعوبة.

حسين : لكن هل مثل هذه الطمأنينة وتوجيه النصائح تزيل الشبهات من القلب.

الشيخ : اسمع يا حسين ، إن القوة هى التى ستبعد شكوكك بشرط أن تشغل نفسك فى محاولة رفعها ، ولكنى أقول لأطمثتك إن اسمها فى الدنيا تكميل النفس وهى ذاتها المشيئة الإلهية إن علاقات الروح منفصلة عن الجسم وتعود الروح على تغيير الأفعال الجسمانية ، وهى لا يمكن أن تؤدي أى عمل بدون مساعدة المادة ، وهذه الأرواح قد وقعت فى ورطة

الماديات فى الوقت الذى كانت تغادر فيه الجسم، وهى فيما بعد أيضا توجد فى الظلام الحالك لغبار مادتها فى كل وقت، وهذا الشيء ذاته هو جهنم فى اصطلاح الشرع ، وهكذا ينبغي السعى للنجاة فى الحياة عن طريق التخفيف من روابط الروح بالجسم وإن بداية هذا السعى تكون بأن يُستخدم الجسم فى ما لا تكون للروح فيه علاقة، فبعد أن تضطرب الروح يجب التوجه ناحيتها ومنعها بالإكراه بقوة الإنسان وشجاعته، وهذا هو التعليم الأولى للإلهيات، أما الثانى - أى التعليم المتوسط - فهو أن تقوم الروح بمثل ذلك العمل الذى لا يكون له علاقة بالجسم، ويؤثر فى أرواح الناس فى المدن البعيدة، ويجب فهم علاقتهم حيث يطوون الدرجة الوسطى لعالم الروحانيات. وبعد أن تحصل الروح على الانفصال عن الجسم إلى الحد الذى تكون فيه مبرأة ومرتزة عن المادة فى البحث عن انكشافات نور الأنوار، وتترزه الملكوت وعالم اللاهوت تكون هذه هى الدرجة الثالثة. أما مَنْ يموت فى وقت البحث الأعظم فإنه يودع الجسم الترابى، وهذه النقطة الأولى التى تلتقى بعلة العلل وواجب الوجود تنال فى ذلك الوقت أعلى الكمال الروحى وهى تحصل عليه عن طريق رفع قيد العالم المادى ، وقد كان مبتلى بمصائب عالم العناصر الأربعة (الدنيا) ، والآن فإن حالته هى أنه من ناحية حين تظهر لديه هذه الصلاحية من التعليمات المادية للعلاقات الجسدية يستطيع أن يُشكّل نفسه كما يشاء أمام هذا العالم، ومن ناحية أخرى تصل إلى هذه الدرجة من التجرد والروحانية الكاملة بحيث يلتقى بالمركز الأول لنور الأنوار وينقطة الأزل إذا شاء ؛ لهذا يا حسين فإنك فى الصف الأول من مدرسة الروحانيات، وتُدرب الآن على هذا الأمر أى تلك الأفعال والحركات الصادرة عن جوارحك وأعضائك التى تنسب إليك، وهذه اللعنة واللوم من جانب

روحك ونفسك اسمها العلاقة الروحية ، والتي يجب عليك السعى للانفصال عنها وعندما تصل إلى مرحلة معينة ولا تهتم الروح بأى فعل لأعضائك عندئذ تصل إلى الدرجة الثانية للتوحيد.

حسين : إذن لا أكثرث بتلك التهم وذلك اللوم والتأنيب الذى يتوارد على قلبى .

الشيخ : لا: مطلقا ؛ لأن تدرييك على هذا الأمر والعناية بنور الأنوار هو أول السلم .

حسين : يا سيدى لماذا تقول نور الأنوار على الله جل وعلا فلا أستطيع فهم رمزه ، فرب العزة تعالى بلا شك نور ، لكن لماذا الأنوار؟

الشيخ : (بعد أن تملكه الغضب) هو(الله) نقطة الوحدة ونبع التكوين وهو منزّه تماما عن هذا، فنحن ننسب إليه صفاتنا المادية وهو هكذا "ليس كمثله شيء" .

حسين : لكن عندما ينسب الله جل شأنه هذه الصفات لنفسه فأنى لنا أن نفكر ؛ كان الشيخ وجودى لا يزال غاضبا ؛ فنظر إلى حسين وحدث فيه بعينين حمراوتين مشوبتين بالغضب وقال : لاشك أن الإنسان خلق ظلوما جهولا فهذا مالا يدركه خيالك ، ونحن كذلك ننسب إليه تلك الصفات بموجب إرشاده وتوجيهه ونطلق عليه اسم "نور" ، ولكن لأنه منزّه فى خيالنا عن النور ؛ لهذا نقول عليه كذلك "الأنوار" .

حسين : هذا صحيح لا ريب وقد اطمئنت الآن وإن شاء الله لن أندم على أفعالى ، ولكنى أمل الآن أن ترينى تلك اللجنة حيث جلست "زمرد" متألقة بجوار الأجرام الفلكية.

الخورية تبكى فى أركان الفردوس الأعلى وتسعى إلى معرفة الطريق إليك ،
والآن سوف تحصل على متاع الخلوة من هنا، تعال وشاهد معجزات
القدرة .

صاحب هذه الجملة نور بدا من قاع الغار، وقال كاظم جنوبى
لحسين : " كفى لا أستطيع التقدم للأمام، ليس لى طاقة على ذلك " .

حسين : لماذا؟

كاظم جنوبى : إن ضياء التجلى يحرق جناحى لو تقدمت قيد
أنملة فلو تقدمت خطوة لاحتترقت ؛ فاذهب واعلم أنك فرع من شجر
المعرفة .

بعد أن سمع حسين هذا ترك " كاظم جنوبى " وهبط إلى الغار،
وقلبه متحمس لأن يرى حلم القلب، وهو فاقد لوعيه، وظل لفترة من
الوقت يتعثر بالصخور هنا وهناك ، لكنه عندما وصل إلى النهاية التى كان
النور ينبعث منها وجد على يمينه سلما فهبط مستخدما هذا السلم، وخلافا
لما توقع وجد أمامه بيتا واسعا فخما بين هذه الهضاب المخيفة ومساكن
الضواري والوحوش تضاء كل جوانبه بشموع كافورية ، وكان العود
واللبان والأبواب والحوائط مطلية باللون الذهبى وعليها النقوش والزخارف
على هيئة بيانات ، وكانت مرصعة بقطع من الزجاج والأحجار الكريمة
الملونة انعكست فوقها صورة الشموع المضيئة مما أوجد جوا عجيبا فى كل
اتجاه وناحية ، وقد أصيب حسين بالجنون وبهت بعد أن رأى كل مظاهر
المتعة هذه، وصاح فى حماس وقد نفذ صبره " هل هذا هو الفردوس
الأعلى " فانبعث من مكان قريب صوت فى لهجة ممزوجة بالطمأنينة " ،

لمكن هذا هو المنزل الأول للمستترهين فى الخلوة ، والتى يمكن أن تكون كفوًا للبقاء فيها، ويجب ألا تصاب بالذهول فجأة بعد أن ترى متع الجنة .

حسين : لكن من أنت؟ وأين تكون؟ حتى أحضر لك وأودى لك الشكر.

صوت : أنا قريب منك.

وفجأة جاء صوت وسحبت الستائر المزركشة التى كانت تبدو أنها جدار فغاب عن النظر بعد أن سحبت الستائر، وظهر رجل طاعن فى السن قوى البنيان تبدو طلعتة نورانية بهية متكئ على أريكة مطعمة بخيوط الذهب ، والعجيب أنه كان يجلس فى حالة استغناء وعدم اكتراث ، وكان وجهه نورانيا صافيا كالمرآة ، بينما كانت الشموع التى تتلأل كالشمس تلقى بنورها على رجاج الحائط والباب من جميع الجهات ، كانت لحية الشيخ بيضاء كثة تخدم (الناظر) إليها ، وتبدو كأشعة الشمس أو سجاج مصنوع من خيوط الفضة والذهب.

وعندما رأى حسين هذه الصورة النورانية جرى إليه كالفراشة ، وجثا على قدميه وقال: من فضلك من أنت؟ لعل اسمك رضوان؟

الشيخ : لا، فأنا لازلت حتى الآن فى إطار الجسد المظلم لكن الحجاب الأول قد رفع عن عينيك، فأهل الدنيا يطلقون على اسم "شيخ الجب" بينما أدعى "طور المعنى" بلغة المتصوفة أهل الحقيقة.

حسين : (فى حيرة) لعل "طور المعنى" فى الحقيقة هو نفس النور الذى تجلى لموسى على جبل الطور؟

طور المعنى : لكنك ترى من خلال سبعين ألف حجاب .

حسين : بالله عليك ارفع عنك كل هذه الحجب .

طور المعنى : أنت الآن بعيونك المادية البحتة لست جديرا بهذا ، لكن اصبرا وسوف تنال متاع ذلك ، وسترفع كل هذه الحجب .

وفجأة حضر غلام جميل وأعطى " لطور المعنى " كأسا من الشراب ، فرفعه " طور المعنى " بيده ناحية حسين وقال : اشرب من هذا الكأس وستقرب درجة أخرى من الملكوت ؛ فشرب حسين الكأس فورا وشعر معها بأن رأسه بدأت تدور ، وغفل بعد أن التصق بطور المعنى وقد فتح عينيه عدة مرات فى نوم الغفلة فكان يجد نفسه فى كل مرة فى مكان جديد ، فمرة يكون فى مروج خضراء نضرة ، ومرة أخرى فى عمرات جبلية وعرة موحشة ، وكلما عاد إلى وعيه لا يظهر له ملاك أو إنسان بل نوع من الناس غير العاديين فى هذه الخلوة يؤكدون له قربهم من هدفه أكثر فيتأكد له ذلك ، وفى النهاية فتح عينه فإذا بشاب يقف أمامه يرتدى ملابس حريرية بيضاء مطرزة بالذهب ، على رأسه تاج ثمين مرصع بجواهر كريمة ، وعندما وقعت عيننا حسين على هذا الشاب الوسيم الذى كان يرتدى ملابس ملكية ويلبس تاجا على رأسه بدأ يقول له فى لهجة متضرعة عاجزة " الآن ليس لى صبر على الانتظار و الأمل " .

الشاب : أيها الجسم الترابى لقد طويت مراحل الحيرة ، ألا تعلم أنك الآن قريب من السماء وعلى باب الفردوس الأعلى ، فلا تضطرب ، الملائكة المقربون فى انتظارك والخور العين تترين لك الآن .

حسين : ومن أنت ؟

الشاب : أنا ذلك البروخ الذى يتوسط اللاهوت والناسوت ، وهذا هو جسمى الذى كان يتحول أحيانا إلى نور يتجلى على طور سيناء وهو نفس النور الذى أظهرته العظمة الإلهية فى جسم المسيح ، وكان يضىء مصباح الحياة فى الموتى وهو ذلك النور الذى يومض فى صدر رسول آخر الزمان من عظمة الإشراف المجرد، وهو نفس ذلك النور الذى يغير أجسام المعصومين بعد أن يضىء مشعل الإمامة.

حسين : فأنت إذن جبريل؟

الشاب : إن جبريل كذلك شمعته صغيرة من تجلياتى.

حسين : لعلك وحي لا تموت؟

الشاب : لست وحيًا لا يموت أو وحي لا يموت ، لكننى لا أستطيع أن أدعى ذلك مع هذا التشخيص، ومن الضروري أن أقول: "أنا خالق الأرواح"، "أنا خالق الإصباح"^(١) لكننى فى هذا الوقت شكل فى غير ثبات ، يظهر فى شكل إمام يجب على كل مكلف أن يؤمن به.

حسين : (بعد أن ضرب كفا بكف) وأنا أيضا أبابك بإمامتك وعلى نقطة الوحدة هذه.

الشاب: اسمع يا حسين لقد وصلت إلى هدفك المنشود وطويت درجات الصعود ولعلك تناله قريباً وهو مفتوح لك منذ ستين، ومع أنه سقطت عنك فرائض العبادات الدنيوية ، لكن ينبغى عليك لكى تخرج من قلبك الأثر الباقي من الدنس الأرضى أن تجلس أمام بوابة الخلوة لتؤدى

(١) هكذا فى الأصل .

طقوس عبادة مختصرة، يجب عليك أن تردد هذه الكلمة فقط على لسانك لمدة ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً.

وهي : " يا مركز النور أغرقني في بحار أنوارك" ^(١). ولكن هناك شرط هو أن تأكل قليلاً ، ولا يجب ألا يتزل حلقك قطرة ماء في تلك الأيام الثلاثة .

وبعد أن قال الشاب المتوج هذا الكلام ترك عدة أرغفة ورحل . وبذهابه غلقت في وقت واحد جميع أبواب المكان فجأة ، وفي البداية شعر بالاضطراب بعد أن صار وحيداً ، لكنه تذكر على الفور نصيحة المرشد والإمام الأخير فشغل نفسه بالرياضة الروحية والتسبيح وظل يردد تلك الجملة بشكل متواصل ، وجن جنونه في اليوم الثالث من جراء العطش وجف كل حلقه من شفثيه حتى صدره ولم يكن يصدر عنه أى صوت سوى همسات خافتة ، لكنه لم يمنع لسانه من الأوراد شوقاً إلى زمرد ، وكان يدعو بذلك وهو في هذه الحالة من الاستغناء وإنكار الذات .

وفي اليوم الثالث كان لسان حال حسين يصبح من العطش فإذا بالشاب المتوج الذى يرتدى ملابس ملكية قد جاءه وقال له : "هيا الآن استعد للسفر إلى الجنة ، لقد أكملت رياضتك وطويت جميع المراحل ولم يتبق أى شيء يقف عقبة في هذا الطريق ، لكن حسناً أنت عطشان بعد قليل سوف تستعيد نشاطك وهمتك " ، ولم تكد هذه العبارة تخرج من لسان هذا الشاب حتى ظهرت امرأة غاية في الجمال والحسن ، وقد أمسكت في يدها كأساً مرصعاً بالذهب ، ومثلنا حتى آخره بنوع خاص من

(١) هكذا في الأصل .

الشراب، له لون جميل فأخذ هذا الشاب الكأس من يد الحسناء ورفعها ناحية حسين ، وقال: " خذ هذا الشراب الطهور الموجود على الدوام في الفردوس الأعلى، وسوف يزول عنك التعب والإعياء والعطش وكل الأمور المقلقة ، وسوف تدخل الجنة وأنت في غاية السعادة الروحانية والنورانية.

أخذ حسين الكأس بسرعة وأفرغه في فمه ، وكان العطش قد اشتد به فزال عنه بجرعتين فقط، وما إن مرت لحظة واحدة حتى بدأ يشعر بثقل في رأسه صاحبه نشوة سكر ؛ فأخذ يغفو وفقد وعيه تماما حتى لم يعد يدرى ما يدور حوله.

الباب الرابع

الفردوس الأعلى

لم يدرك حسين كم قضى من الوقت فى هذه الغفلة، لكن ذهب له بدأ يزول قليلاً ، وبينما بدأت نشوة الغفلة تتلاشى إذا بأنغام جذابة طربة تصل إلى مسامعه، وبدأت أمامه كأنها مجموعة أشكال فاتنة ساحرة بمصاحبة المزامير والآلات الموسيقية الغربية والعجيبة تبارك بهذه الترنيمة بأفواهاها التى تنبعث منها البهجة وحنانها النورانية "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين"^(١) فاضطرب وفتح عينيه تلقائياً من فرط سعادته، وحيثما جال نظره وجد هذا المنظر يخيم على كل مكان "فالمعجزة تشد طرف القلب ؛ فالمكان هو هذا المكان"^(٢) . فى هذا الوقت وجد حسين نفسه يركب سفينة مرصعة بالذهب ، وكانت السفينة قد رست من فورها على شاطئ قناة ضيقة لكنها جذابة بعد أن سحبا صبية أجسامهم رقيقة على درجة كبيرة

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) هكذا فى الأصل .

وفى الجانب الثانى شارع صغير رائع يعانقه ؛ فكان هذا الشارع يظهر كمال الصنع أكثر من الروضة ، وقد استخدم فى تمهيد تلك الشوارع والطرق مختلف أنواع الحصى والحجارة والألوان ، وقد رصف كل شارع بلون خاص من الحجارة الكريمة فُرشُ أحد الشوارع الفيروز والآخر بالزمرد . والثالث من الياقوت والرابع من أحجار النيلم ، وكان هناك نوع من الجمال فى التنسيق بحيث يبدو تناسب وانسجام بين لون أزهار الروضة والشارع الضيق الأنيق الذى يمر بجوارها والطيور المغردة الصداحة تطير وتتشرب فى أرجاء تلك الرياض وتخط قرب الورود تحكى قصص الحب والعشق ، ويعلم الله على يد أى أستاذ بارع تعلمت ، كما أن أكثر الذاهبين والغادين فى النواحي الأخرى يسمعون نشيد الترحيب من حناجر الحور النورانية ، وهناك جوقة طيور صداحة تردد كلمة الترحيب هذه على أرغونها الطبيعى: "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" (١).

وقد تعجب حسين وازدادت دهشته عندما رأى أسرة ذهبية وفضية منتشرة فى كل مكان على شواطئ الأنهار فى تلك الحدائق وعليها فُرش من الحرير المشجر بالورود ، بينما الناس يسندون ظهورهم على أرائك كبيرة والفتيات الصغيرات الفاتنات يجلسن فى ركن من الأركان يستمتعن بالجنة فى طمأنينة .

فى أحد الأماكن يقف أمامنا فتية غاية فى الجمال والحسن يتشرون فى كل مكان يقومون بأعمال السقاية بحركات غاية فى الرقة واللطافة ، والشراب يدور ، وللنشوة والمتعة كانت الطيور المدربة تقطف الفواكه من

(١) هكذا فى الأصل .

الأشجار المثمرة تحضرها وتضعها أمامهم وتطير، وكانت المتعة الكاملة بالشراب والمحبوب متوفرة لهؤلاء الناس، وكان أكثر ما أثار انتباه حسين هو أن كل الناس يستمتعون بتلك اللذات باطمئنان ودعة، بلا تعب أو نصب ولا يدرى الواحد منهم أيضا من يمر بالقرب منه ولا إلى من ينظر فلا أحد يحسد أحد، ولا أحد يخفى سعادته عن أحد: الجنة هناك حيث لا تعب ولا أذى حيث لا يكون لأحد شأن بالآخر تولد الحماس في قلب حسين بعد أن رأى هذا العالم فصاح بصوت عال: لا شك أن هذا هو الفردوس الأعلى، هو بعينه، وهنا يأتى المؤمنون والصالحون لكى ينالوا جزاء أعمالهم الطيبة، لكن وآسفاه أين أنت يا زمرد؟ ولم يكذبته من هذه الجملة حتى قال شخص ما بصوت جذاب صدر من ناحية الورود بالقرب من الروضة "أنت الآن تراها فى رياض الجنة فارفع ناظريك قليلا وانظر فى القصور والمنازل".

لم يكذب يسمع هذا الصوت من ناحية حتى ظهرت أمامه حسناء فاتنة رقيقة الجسد، حنت رأسها وابتسمت وقالت "أنا أيضا لك" فاستحى حسين قليلاً وابتعد عنها، وبعد أن نظر إلى وجهها بتمعن قال: "لكننى لا أريد غير حبيبتي زمرد".

الحسناء : سوف تجدها أيضا ؛ إن كأس سعادتك ضيق، فانظر قليلاً إلى تلك المباهج والمسرات ومن ثم ستلتقى بها، انظر إلى قصر اللؤلؤ الذى أمامك حيث تقيم زمرد، إنه لك.

رفع حسين نظره فشاهد القصر المنيف، ووقعت عيناه على القصور الأخرى أيضا فرأى أن هذه القصور أكثر فخامة وبهجة من الحدائق ؛ فبعضها يبدو من الذهب الخالص وبعضها من المرجان وبعضها من اللؤلؤ

ويطلقون عليها جميعا بكلمة " كشك " و " قصر " و " محل " حسب أهميتها من بين هذه القصور قصر من الفيروز وآخر من الزمرد وثالث من الياقوت ورابع من الماس ، وكان قصر اللؤلؤ بلونه الأزرق مخصصا لحسين باللون ، ويظهر أنه مطعم باللؤلؤ من أسفل إلى أعلى كما رُصعت أجزاء منه بقطع من الصدف الأصلي المتلألئ ، وعلاوة على لون جميع القصور الذى يشير إلى القصر المذكور ؛ فإن جميع الأبواب والحوائط قد حُشيت إطاراتها بقطع من الزجاج والبلور ، وكانت هذه المرايا تتلألأ بقدر هائل فى ضوء آلاف الشموع الكافورية ليلاً ، وفى نور الشمس نهاراً .

بالإضافة إلى هذا رصعت تلك الحوائط من الداخل والخارج بالجواهر فكانت أشعتها المتلألئة تخلق جواً عجيباً من السرور ؛ على كل حال فإن مجموعة القصور الملونة الذهبية والفضية ومراياها قد نشرت نورا فى جميع الجوانب الأربعة ؛ بحيث لو وقع النظر عليها يتولد الحماس والحمية فى قلب الإنسان . بعد أن رأى حسين تلك القصور ظل واقفاً مبهوراً لفترة من الوقت لكن عقله اتجه ناحية هذا القصر الخاص الذى كان قد سمع من الحورية أنه خاص به ، والذى كان يأمل أن يلتق فيه حبيبته زمرد ، عندئذ اتجهت عواطفه القلبية بقوة نحو زمرد فلم يعد يرى السعادة فى أى متعة ولا ينظر ناحية أى شيء قط فوصل مباشرة إلى بوابة هذا القصر ، وكانت زمرد قد خرجت من القصر لاستقباله أيضاً ، كان نظرها غير عادى ، لكنها فى شكل أخذ جذاب كانت تقف مكشوفة الشعر جدائلها مسترسلة على الظهر والأكتاف تلاقى ، وتواجهت العيون ، وفى حماس تلقائى نطق كل منها باسم الآخر وأسرعاً يتعانقان ، وكان حسين فى سعادة غامرة ، وكان وجه زمرد ينطق بالبشر والسعادة غير العادية ، وانخرط حسين فى

حسين : إذن ، هذا هو الله جل وعلا؟

زمرد : لا أستطيع أن أقول هذا ، ولكنها إرهابه .. أولى وهي أكمل وأصدق صورة له .

بعد أن سمع حسين هذا الرد خر ساجدا أمام هذا النور ، لكن زمرد أنهضته وقالت : "أنت غير مكلف بالعبادة هنا ، فلا هدف من هذا النور سوى إدخال ينشأ الطمأنينة والسرور في قلوب الناس .

الآن وقد رأى حسين فرش القصر وجميع الكماليات ، تأكد له أن كل هذا المتاع نوراني ، ولا يخطر على قلب بشر في الدنيا ولا يمكن لأحد أن يقدر ذلك ثم أشارت زمرد بيدها قائلة هنا ترى جميع الأشياء العجيبة تدور ، وقد اعترف حسين وآمن من كل قلبه بحماس برحمة الخالق ذي الجلال والإكرام وقدرته على كل شيء ، وفي نهاية الجولة منع من دخول أحد الأماكن فعاتق زمرد بعاطفة ملتهبة وقال : مع جميع هذه المتع وكل هذا السرور والهناء إلا أن زمرد بالنسبة لي لا تعادلها نعمة .

زمرد : إن هذا الحب قد أتى بك إلى هنا ؛ لأن هذا المكان لا يمر به أى إنسان حى إلا نادرا ، وهذه هي فضيلتك الكبرى ؛ فقد وصلت إلى أرض النور بالرغم من هذا الجسد الترابي .

تجول حسين في الجنة وتمتع بحسن زمرد وجمالها ، وقضى على هذا الحال أسبوعا يستمع إلى أصوات النغمات الحاملة المنعشة للقلب التي كانت تدوى وتهدر في كثير من الأذان ، وكان الكثير من الحوريات يحضرن في خدمته ، لكنه كان زاهدا في جميع الحوريات الجميلات ، ولم تكن له أى علاقة بأحد غير زمرد ، فكان يتأبط زمرد كل الوقت يتجولان معا ويتزهران

فى تلك الروابى المنعشة والأودية الخلابة الساحرة، وقد ظلت زمرد تتجول معه وتتزّه حيناً من الدهر حتى جعلته يشاهد جميع المتزهات والأماكن الخلابة هناك ، وقال حسين ذات مرة: لقد سمعت يا زمرد أن الوقت فى اللجنة دائماً هو وقت الصبح ، لكننى عندما جئت إلى هنا رأيت أن التغيرات الدنيوية موجودة هنا أيضاً.

زمرد : لقد أخطأ الناس فى فهم هذا الأمر، فما يقال أن كل وقت يظل كوقت الصبح هنا ليس معناه أن الإنسان هنا لا يمكنه أن يستمتع بأى وقت آخر، كذلك فإن الهدف الأصلى من الاستمتاع الكامل بالجنة هو أنك لابد أن تجد مثل ذلك المكان هنا فى كل وقت حيث يتمتع الإنسان وقتما أراد.

حسين : كيف؟

زمرد : هذا الأمر لا يتضح مشافهة، فهيا نمشى لتراه بعينيك، واصطحبته معها بعد أن قالت ذلك ، وخرجت من القصر الدرى قائلة : انظر هنا فالجو يبدو مثل الظهيرة، (ولستقدم الآن قليلاً) وبعد فترة وجيزة وصلا إلى دوحة كثيفة من الأشجار الخضراء الياضعة التى تمنع أشعة الشمس من الوصول ، وكان الظلام يخيم على كل مكان إلا من ضوء خافت بارغ هناك من الجبل الذى يطل على القلاع الشرقية، وبعد أن وصلت زمرد هناك قالت: انظر فهذا هو وقت الصبح.

حسين : لا شك فى ذلك.

زمرد : تقدم إذن.

وبعد أن غادرا ذلك المكان بفترة وجيزة وصلا إلى وادٍ صغير تحيط به الجبال من كل جانب بين الأشجار تبدو ظلمة غير دامسة وعلى مسافة

قصيرة منها يتصاعد دخان خفيف من فوق القصور ، وكانت المصابيح مضاءة في بعض الأماكن ، ويعلو صوت تغريد الطيور ، وتبدو أشعة غروب الشمس على القلعة من ناحية الغرب ، وهنا توقفت زمرد قائلة : "وهكذا يكون وقت المغيب" .

حسين : لا يمكن الشك في هذا .

زمرد : لقد شاهدت وقت النهار ، ورأيت المساء كذلك ، ولم يتبق غير رؤية وقت الليل فيها بنا لأريه لك .

بعد أن عادا من هناك أخذت زمرد حسين ودخلت في غار في أحد الجبال به طريق منخفض ممهّد في غاية الجمال ، ولم يكن به سلم بل جزء الأرض المرصوف والملون يهبط لأسفل لحظة بلحظة ، وكانت هذه الأرض تتشعب في طريقين ، وفي النهاية وصل الاثنان إلى منطقة مليئة بالفخامة والتنعم حيث كانت أضواء الشموع الكافورية تملأ المكان ، والشريرات والمصابيح الكثيرة مدلاة ومعلقة ، وكانت هناك قطع ذات ألوان مختلفة من الزجاج على الأبواب والحوائط ، وكانت ذوائب تلك الشموع تتلألأ بنور عجيب لا مثيل له يستلب النظر .

زمرد : انظر هذا هو الليل ، وكم هو ليل محجب .

حسين : حبيبتى زمرد مادمت معى فكل شيء محجب .

وبعد أن رأيا كل هذه المتعة عاد إلى قصرهما ، وبدأ يتحدثان معا في أمور الحب وإن بدت زمرد في البداية حزينة بعض الشيء ، وكان هذا الحزن واضحا على وجهها وإن كانت تحاول جاهدة أن ترسم على وجهها البشاشة رغم ما بقلبها من حزن .

زمرد : عندما يصدر الأمر ، لكنتى أعلم أن ذهابك سيكون قريباً ،
ولهذا فسوف استدعونك لعدة حاجات ملحة هناك ، دمعت عينا حسين
بعد أن سمع هذا ، وزفر آهة باردة من قلب ملئ بالحرقه وقال : " انتهى
الربيع ولم نشبع من وجه الوردة" (١).

فأنا الآن لم أحصل على متعة وصالك ، ولكنك يا زمرد لن
ترحلى معى ، ومن الآن سوف أضع يدي فى يدك دائماً فلا يفرقنى عنك
أحد أبداً.

دمعت عينا زمرد بعد أن سمعت هذا الكلام وقالت : يا حسين هذا
الأمر خارج عن نطاق قدرتك ؛ فحينما يحين الوقت لن يكون لديك علم
به ، وسيأخذونك إلى عالمك فى طرفة عين .

حسين : (بعد أن بكى) إننى لن أتحمل مصيبة فراقك ، وسوف أقتل
نفسى ولن تمر ساعة واحدة إلا وقد وصلت عندك .

زمرد : لا تغضب إلى هذا الحد ، فلو انتحرت ستحرم عليك الجنة ،
ومن ثم لن يكون هناك أمل فى لقائك حتى يوم القيامة .

حسين : (بعد أن ضرب يده على صدره بقوة) : لماذا إذن سأتبقى
حياً؟

بالله عليك يا زمرد أخبرينى بحيلة وإلا سوف أعجز عن الفهم إلى
الأبد ؛ لأننى بعد أن أذهب إلى الدنيا لن أستطيع الحياة ، فهناك آلاف
الموانع ، وسوف أغرس خنجرى فى صدرى ؛ حسناً . . إن لم يكن الأمر
كذلك فامش معى .

(١) شطر من بيت شعر .

عندها تحين لك الفرصة للمجىء هنا مرة أخرى، فمن أجل هذا ولكي تحقق رغبتك لا ترفض لهم أمرا ، وإذا لم يعدوا بإرسالك إلى هنا ثانية وضاعت عليك السبل فلتعد أدراجك إلى ذلك الوادي ولتقم هناك عند قبري حتى أرسل لك رسالة أخبرك فيها بحيلة أخرى للمجىء إلى هنا.

حسين : جبل طالقان!!؟

زمرد : نعم هناك ؛ فلو أنك أقمت هناك شهرا فساخبرك بحيلة، وحذار أن تخبر أحدا.

حسين : لكن يا حبيبتى زمرد لماذا لا تخبريني الآن بهذه الحيلة لكي أبدأ تنفيذها ؟

زمرد : للأسف لم تستطع أن تفهم، فما عليك إلا أن تفعل ما أخبرتك به ، ولن أخبرك بهذه الحيلة الآن.

حسين : انظري كم من الأيام همت فيها على وجهي؟

زمرد : اصبر واعمل بقوة وتقان ، وحذار أن تكشف هذا الضعف والجبن حتى لو أزمعت على الانتحار.

حسين : أنا أخشى من هذا يا حبيبتى زمرد إن حبك يجعلني أحيانا أفقد الوعي فلا أميز بين الخير والشر، لقد قتلت عمي الشيخ نجم الدين نيسابوري من أجلك.

زمرد : أعلم ذلك لكن لا تشركني فيه(بعد أن سمعت وقع أقدام) قالت: اصمت الآن.

الباب الخامس

العودة إلى الدنيا مرة أخرى

بعد وقت قصير من فقدان الوعي والغفلة بدأ حسين يسترده وعيه قليلاً، ووصل إلى مسامعه صوت يقول: "أيها الجسد الترابي انهض وقبّل يد البررخ الأكبر الذى هو أمامك ؛ فهذا هو قد اختار الشكل المادى المحض المجرد من أجلك أنت فقط" ، فتح حسين عينيه بلاكلف أو عناء فوجد أمامه بدلاً من الجنة وجوار زمرد ذلك الشخص المتوج بنفسه، الذى كان قد بايع على يديه وقد لقيه فى المنزل الأخير من رحلته إلى الفردوس الأعلى، فرك حسين عينيه ونهض ثم جلس تأدباً وخر على قدميه وبدأ يقول: "اللهم لا توقظنى من هذا الحلم".

فقال رجلٌ: لا ينبغي عليك الذهاب إلى العالم الأرضى، وحاذر إذ لا يجب الهروب مطلقاً من شيوخ الباطن، هاهى يدى فيها إلى جانب النور جزء مادى قليل جداً وقد تلاقت يديك وستظل دائماً فى يد أولئك الناس الذين عن طريقهم تصل إلى هذا الملاء الأعلى.

حسين : لكننى الآن أريد البقاء فى الجنة عدة أيام أخر.

شخص : لا يمكن لك العيش فى هذا العالم المادى لكن يمكن لك ذلك فى تلك الدار الروحانية فاذهب ، عليك أن تنتظر وقتا تحاول فيه مرة أخرى أن تشرب من كأس الفناء بأمر من المرشد والإمام.

حسين : أنت إمامى ، فاسقنى من كأس الفناء وأوصلنى إلى الفردوس الأعلى.

شخص : الآن نحن على حدود الملا الأعلى وليس هنا فناء ، وفى تلك الأثناء جاءت نفس الحورية الخسقاء التى أخذت من يدها الكأس المملوءة من قبل ، وما إن رآها هذا الرجل حتى قال : كفاك الآن ولا تتعلل أكثر واحتس هذا الكأس الأخير من الشراب الطهور ، ثم رفع الكأس بيده إلى حسين .

لقد أدرك حسين الآن أن هذا الشراب الطهور شراب لا يترك أثر السكر عليه ، وكما أن نشوته كانت قد سمت به فى بداية أمره إلى عالم النور ، وسوف تنزل به الآن إلى حضيض الظلام ، إلا أن مشقة اليأس قد ضاعفت عطشه حتى جعلته لا يتجرأ على الرفض فأخذه وشربه بهدوء ، وبعد فترة وجيزة فتح عينيه فبدأ يترأى له منظر مختلف أمام عينيه الحائرتين ؛ إذ كان أمامه صحراء أحيانا ، وجبالاً عالية ومنخفضة أحيانا ، وفى النهاية وفى ليلة من الليالى فتح عينيه فإذا بشيخ الجب أمامه ، وفى أول نظرة له ربت بيده على كتفه وقال : " يا حسين لقد عدت مرة ثانية إلى دائرة الجسد المظلم وقد رأيت بهاتين العينين الأنوار المحضة والمجردة ، وهما أنت الآن ترى نور سيناء هكذا من خلال سبعين حجابا " .

فقال حسين (بعيون دامعة) : لكنى لم أكن أريد المجيء إلى هذه الظلمة الترايبية.

طور المعنى : لا شك أنك لا تريد، وأن عواطف نور الوحدة تجذبك هكذا إليها، لكن كيف يمكن لهذا الجسم الترابي المعيب أن يقيم دائما في موطن النور هذا.

حسين : بالله عليك حاول أن تأخذني إلى ذلك الملاء الأعلى بعد التخلص من هذا الجسم الترابي.

طور المعنى : إن الشيخ على وجودي يمكن له أن يطمئنتك في هذه الأمور فاذهب إليه وافعل ما يأمر بك به.

حسين : (بعد البكاء والنواح ويقلب متحمس) وأسفاه!! أبعد رياضتي هذه وبعد أوقات طويلة من الأمل لا أنال غير هذه المدة الوجيزة! فماذا أفعل حتى يكون وصل زمرد من نصيبي مرة أخرى؟!

ويعد هذا بدأ حسين يجهش بالبكاء والعويل حتى وصل ببكائه إلى النحيب.

طور المعنى : يا حفنة التراب العالية الهمة إنك بعد أن تخرج من خلوتي وتذهب إلى صفحة الوجود وتكمل هذا الأجل المحدود ستكون حبيسا في هذه الأرض المظلمة لبضعة أيام.

حسين : (في حيرة من أمره) يا ليت "حفنة التراب" هذا يدرك إلى متى سيظل حائرا هائما على وجهه في هذا العالم.

طور المعنى : إن حل تلك الرموز بالنسبة لك هو من عمل الشيخ على وجودي ؛ لأنه مرشدك، لكنني أريد أن أخبرك بسر وهو أن ريارتك لعالم النور ثانية ستكون برغبة هذا الإمام فقط، وهو الذي بايعت على

يديه وهو البروخ اللاهوت والناسوت ، وهو ذلك التجلى الذى يظهر فى الإمامة والنبوة بأشكال مختلفة.

حسين : ولكن كيف الوصول إلى ذلك؟ ولماذا أرمى فى قعر الظلمة هذا بعد أن كنت فى الملأ الأعلى.

طور المعنى : مع أن مكانه المحدد هو فى أرض النور الأعلى ، إلا أنه بسبب هذا النوع من العلاقات البسيطة يغير كثيرا من ملامح الإمامة وينجذب إلى أرض العناصر هذه فى كثير من الأوقات ، ولكنك لا يمكن أن تنال النجاح فى قصيدك هذا بدون مرشد، لو أصررت على ذلك فإن مرشدك الشيخ على وجودى سوف يساعدك فى هذا الأمر، فقط عليك الآن أن تترك خلوة النور هذه ، ولتذهب لكى تقبل قدمى مرشدك ؛ إننى لآمل بهذه المقولة أن أضئ المصباح المظلم فى صدرك مرة ثانية ؛ حيث إن نوره سيخرجك من ذلك الغار ، إلا أن حيرته لم تنته بعد ؛ فقد رأى كاظم جنوبى واقفا على مدخل الغار (الجب) فى هذا الوضع وهذه الحالة التى كان قد تركه عليها، وعندما رآه كاظم جنوبى قال: "لعلك قد اطمأنت إلى أنك أيضا فرع من شجر المعرفة.

حسين : متى جئت إلى هنا؟

كاظم جنوبى: الآن.. جئت معك.

حسين : الآن!

كاظم جنوبى: نعم الآن.

حسين : لقد مرت عدة أسابيع منذ أن ودعتك.

كاظم جنوبى: (مبتسما) هناك فرق كبير بين هذا العالم وذلك العالم، فالיום هنا يعادل سبعين سنة.

حسين : لعلها ساعة واحدة، ولكن لماذا تقف هنا؟

كاظم جنوبى: كان هذا بأمر الإمام قائم القيامة.

حسين : من هو الإمام قائم القيامة؟

كاظم جنوبى: هو نفسه الذى بايعت على يده فى سفرك لعالم النور.

حسين : لكن كيف تصل أوامره إليك؟

كاظم جنوبى: بوساطة ذلك المرشد ، وأنا واسطة بينهما من أجل طى طريق الحقيقة.

حسين : لعل مرشدك سيأتى إلى هنا؟

كاظم جنوبى: لا حاجة له فى ذلك ؛ فبنظرة واحدة منه تظهر أفكاره فى قلبى.

حسين : للأسف.. فقد أخرجت بالقوة من الجنة.

كاظم جنوبى: عليك ألا تشتكى من هذه الرموز الإلهية ، وأن تبحث عن مغزاها، فاذهب إلى مرشدك الشيخ على وجودي، لكن تذكر أنك جئت الآن بعد نزهة فى عالم النور، وعليك أن تذكره بذلك اللقب (الدينى) المشهور به فى هذا المكان.

حسين : هل له أيضا لقب آخر ؟ لم أسمع عنه.

كاظم جنوبى: نعم، هو الذى تعرف اسمه فى هذه الدنيا، لكنهم يطلقون عليه "الوادى الأيمن" فى عالم النور.

حسين : (متعجبا) الوادى الأيمن (بعد برهة من التفكير) لاشك أنه يجب تسميته بالوادى الأيمن، فقد تراءى لى من جانبه الشعاع الأول لنور الحقيقة.

كاظم جنوبى: كفى واذهب الآن ولترغب فى الطلب.

حسين : لكن من الضرورى أن أخبره عن إمكانية مرورى مرة أخرى فى عالم النور.

كاظم جنوبى: لاشك فى أنه يستطيع هذا الأمر، فالمؤكد أن مرشدك إذا اهتم بذلك فإن كل الأمور تكون ممكنة.

بهذه الجملة أشعل كاظم جنوبى مصباح الأمل فى صدر حسين إلى حد ما وفى النهاية تركا المسكن الموحش وقدما إلى مدينة إصفهان، وبمجرد أن وصل كاظم جنوبى إلى باب مسجده صاح قائلاً: "من الأفضل سد فم الكلب بلقمة"، وبعدها ودعه حسين وسلك طريقه إلى مدينة حلب.

فى هذه الرحلة أخذ حسين يفكر فى الجنة وحورها فى كل وقت، ومع أن جسمه كان فى هذه الدنيا، لكن أفكاره ومعتقداته وروحه كانت تستمتع باستمرار بالعالم الآخر، عالم النور، وكان يقول فى خاطره؛ لقد اتضح لى الآن وبعد كل هذه التجارب ما معنى "موتوا قبل أن تموتوا" أو مهما كان البقاء فى هذه الدنيا، لماذا يقضى الإنسان فى عالم الملكوت شطرا كبيرا من حياته؟ بعد قطع علاقته بأرض العناصر هذه أو الدنيا والآن وفى هذه المرة عندما كان يتجه من أصفهان إلى حلب تراءى له

الشيخ : ولكن جسمك الترابى هذا لن يستطيع البقاء كثيرا فى موطن النور، فمع أنك تقول إننى متأكد بأننى رأيت عالم النور بعينى، إلا أننى أقول لك يا حسين إنك لم تراه.

حسين : لا.. إننى رأيته أيها الشيخ الوادى الأيمن ، وأعتقد أننى أراه بعينى الآن.

عندما سمع الشيخ هذا الجواب من حسين أخذته العزة واشتاط غضبا واحمرت عيناه وهب واقفا فجأة فى حماس ، أما حسين فقد ارتعدت فرائصه من الخوف من رأسه حتى إخمص قدميه.

وبدا الشيخ يقول: أيها المتكبر المغرور يا حفنة من تراب أى طاقة لديك بحيث يمكنك أن ترى بعينيك القاصرتين هذا النور الأزلى، لقد رأيته بعينيك الماديتين، فإن الأشعة الساطعة للأنوار الأزلية لا يمكن لها أن تلمع وتومض فى الضوء الخافت ؛ فإن هذا النور غير المتحيز كان ظاهرا أمام جسمك ، ولا يمكن أن تتضح أطواره الحقيقة أمام عينيك بأى طريقة ، نعم إنك سوف ترى هذه الأنوار ، وسترى حالتها وشكلها الحقيقى، ولكن متى؟ بعد أن تترك هذا الجسد الترابى ، وتصبح متجردا منه ، عندئذ ستذهب إلى منطقة النور ، وفى ذلك الوقت سوف يتراءى لك أنك أيضا مصباح فى هذا النور الأزلى.

حسين : (بصوت مرتعد) ولكننى الآن لا أريد المضى من هناك.

الشيخ : لاشك أنك ربما لا تريد ، ولكن كان هذا مستحيلا، فلا يمكن للنور أن يتحمل كثافة المادة.

حسين : لكنك أيها الشيخ الوادى الأيمن لو أردت فإنك تستطيع الرجوع إلى عالم النور، آه أنا كثير الاضطراب من أجل زمرد.

الشيخ : (بعد أن استشاط غضبا) إذا كان هناك حب فيكفى هذا القدر ، لا يمكنك تحمل مشقة قبول عدم رؤية موطن السرو هذا، فإنك إذا ألقيت بشيء مادي في النار فإنها بعد أن تتعامل معه تنحى الشوائب المتبقية، وهكذا موطن النور فإنه يقذف بجسمك بعد أن يخرج منه الخير.

حسين : إذن فحررتني من قيد هذا الجسم الترابى بيديك حتى أذهب بعد التجرد والصلاحية وأخذ حبيبتى زمرد فى أحضانى فأى عجب فى هذا وهى حتى الآن بأسطة يديها شوقا لى .

الشيخ : الآن يستطيع الإمام قائم القيامة مساعدتك فى الوصول إلى هناك.

حسين : مع أننى بايعته فى هذا البروخ الأكبر وقت وصولى فى بلاطه إلا أنك ساعدتنى، وعونك لى مقدم على الجميع.

الشيخ : حسنا ، لا تقنط فإننى سأمتحنك مرة أخرى ، ولو نجحت فى هذا الامتحان فإننى سوف أوصلك مع توصية منى إلى بلاط الإمامة .

حسين : فلتأمرنى سريعا فأنا مستعد للتنفيذ، فالموت أعظم أمنياتى ولو كان الموت من نصيبى فى هذا الامتحان ؛ فأى حظ سعيد لى أكثر من هذا.

الشيخ : أسلك الآن الطريق إلى مدينة دمشق واقتل الإمام نصر بن أحمد الذى يلقي خطبه ضدنا نحن معشر الباطنية ثم ارجع..

حسين : سأرحل الآن ، ولكن أخبرني هل نحن أولئك الباطنية الذين يذكرهم الناس أحيانا باسم "الملاحدة" ، وأحيانا أخرى باسم "القرامطة" .

الشيخ : لا شك ، نحن نؤيد إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام ، ولأن الإمامة ظاهرة لهذا فإنه من الواجب علينا أن نبليغ بها في الخفاء وبالطرق السرية الباطنية ، لقد فصلت الأنوار الأولية في هذا الأمر منذ القدم وهو أنه ما دامت الإمامة ظاهرة فإن التبليغ بها يكون في الباطن ، وعندما تكون الإمامة سرية وباطنية عندئذ يبدأ التبليغ بها علانية .

حسين : لكن أسباب ذلك أسمى من أن يدركها عقل القاصر .

الشيخ : لاشك أنها أسمى (وحدق فيه بقوة) إلا أن شكوكك الجاهلة أسمى بكثير ، فاتجه بخيالك إلى الله جل وعلا ترى أنه خفى ، ولهذا السبب فإن التبليغ والدعوة تكون علانية .

حسين : أيها الوادي الأيمن إن النبوة ظلت ظاهرة ، وكانت الدعوة بها علانية باستمرار منذ زمان ظهورها .

استشاط الشيخ على وجودي غضبا ، وصاح بلهجة شديدة الغضب "الشیطان حتى الآن مستقر في قلبك ، فقد أغواك ويعوق رغبتك في الذهاب إلى عالم النور ، أنصت ، إن الإمامة فقط هي المرتبطة بهذا النظام ، أما النبوة فستظل ظاهرة دائما وظلت الدعوة إليها علانية منذ وقت ظهورها ، ولكن إلى أي شيء يتجه الناس في دعوتهم إلى الرسالة والنبوة؟ إلى الله وناحية الفردوس الأعلى وكلاهما مخفى عن الدنيا !

حسين : (مرتعدا) ولكن الإمامة أيضا تدعو إلى مثل هذه الأشياء .

كان الشيخ قد بلغ به الغضب مبلغا ، وانتفض فجأة وهب واقفا وقال : أنت تشك في التنزه في عالم النور وتتجاهله ، إن الجنة ونور الأنوار لم تكن ظاهرة في عصر النبوة بهذا القدر الذي عليه الآن في عهد الإمامة ، فالرسالة لم تبعث مطلقا إلى موطن السوء هذا في شكل مادي ، في حين ظلت الإمامة تبعث باستمرار ، وعلى هذا تكون النتيجة الحاسمة والنهائية أن الفردوس الأعلى والنور الأزلي كانا مخفيين في البداية ، وهما الآن ظاهران ؛ ولأنهما ظاهران الآن لذا يجب العمل على الدعوة لهما بطرق خفية وسرية .

حسين : يا أيها الوادي الأيمن لقد هدأت من روعي الآن ، وكان من الضروري أن ترتفع شكوكي ؛ لأنني سمعت كثيرا من الإشاعات والتهمة التي لا أساس لها تنسب لهذا المذهب ، وكنت قد سمعت أن الناس في ضمن حلقة الموت تعرضوا لكل أنواع الدسائس للدخول في هذا المذهب .

الشيخ : هذا محض افتراء من الأعداء والجهلاء ، ومثل هؤلاء الناس ليس لهم عين بصيرة ، وليس لهم قيمة أو اعتبار ، وليسوا أكثر من خفافيش أمام تلك الأنوار الأزلية ، فهل هناك أي اعتبار لأقوالهم ، من المؤكد أنه بعد طي هذه الدرجات سوف يترأى لك في أي ملا أعلى نكون نحن؟ وبأي سهولة نتنزه في موطن السوء؟ وهم في أي قعر من الجهالة يسقطون؟ وكيف ينحدرون تحت الثرى يوما بعد يوم؟

حسين : أعلم ذلك ، نطق حسين بهذه العبارة ثم ودّع الشيخ وسلك طريقه إلى دمشق ليقبض روح الإمام نصر بن أحمد .

كان حسين الآن أكثر جرأة لمثل هذه الأعمال ؛ فالشكوك التي نشأت في قلبه في أول مرة لم يعد لها مكان فيه ، وكان قد تأكد أن اللجنة في أيدي هؤلاء الناس الذين يعتقد بهم حقاً وبإشارة منهم ينجو من أفعال الخير والشر ؛ فبالرغم من قتله لعالم جليل القدر إلا أن قلبه لم يتردد قيد أنملة ؛ لأن صورة الشيخ وزمرد قد شجعاه، ووصل دمشق لتنفيذ الحكم على المرشد بوحشية ويقلب غاية في القسوة ؛ فانضم إلى أنصار الإمام نصر.

وكان قد رأى في هذا السفر ما حيره، فبعض الناس في أثناء سيره في الطريق يتعرفون عليه، ويعانقونه، ويؤكدون له وحدة التفكير والأخوة ، وقد بدا له من هذا كم أن المتجانسين معه في الرأي والعقيدة منتشرون في الدنيا بكثرة؟ ولحسن حظه وبسبب اضطراب قلبه سنحت له الفرصة لتنفيذ هدفه بعد شهر، ففي نهاية إحدى الليالي وعندما كان الإمام نصر مجاوراً المسجد يؤدي صلاة التهجد وحيداً في الظلام ومختفياً عن الجميع غرس حسين الخنجرة في قلبه، بعد أن أغلق فمه بإحدى يديه ، وبعد أن قتله صرعه على الأرض وجثم فوق صدره وجلس فوقه بعد أن ضغط عليه ، وهكذا لم يصدر عن الإمام نصر صوت ولم يتعلمل، وعندما صارت اللجنة باردة تماماً خرج من المسجد في صمت الهزيع الأخير من الليل وفي سكونه ورحل، وفي الطريق جلس على شاطئ أحد الأنهار وغسل ملابسه واتجه صوب حلب.

وقد أثنى الشيخ على وجودي على خدماته وقوى من عزمه وقال إنك يا حسين تطوى مراحل اليقين بسرعة فائقة وتنجح في أهدافك.

حسين : أيها الوادي الأيمن إني متحير من أمر ما حيرة كبيرة فحيثما أذهب وأينما أتوجه فإن المتجانسين معي في الفكر والعقيدة ينظرون إلي هيتي ويعرفونني ، لكنني لا أستطيع معرفتهم.

د أن سمع الشيخ هذا أخرج مرآة من أحد الصناديق ، وبعد أن
أ قال : انظر إلى صورتك ألا تبدو على وجهك علامة ما .

سين : نعم هناك وسمه على الجبهة ولا أعرف أى وسمه هذه ربما
سقطت فى مكان ما فى مرحلة الطفولة .

شيخ : (مبتسما) لا هذه علامة قبلة الحور ، وهذا هو الشيء الذى
ثما على أن الإنسان يمكن له أن يستتره بجسده فى الفردوس الأعلى

سين : إذن فأولئك الناس الذين عرفونى غالبا ما تكون علامة قبلة
وجوده على جباههم .

شيخ : لاشك ، ربما تكون ، وانظر يا حسين إنها موجودة على
أىضا .

سين : (بعد أن رأى نفس هذه العلامة على جبهة الشيخ) لاشك
سام طى مدارج اليقين .

شيخ : يا حسين هذا شيء عظيم جدا ، فبعد الموت سيذهب جميع
إلى الجنة ، لكن الناس الذين تنزهوا فى الحياة الدنيوية فى مركز
لذا فإنهم سيفتخرون به هناك ، فإن هذه العلامة ستظل تلمع كالنور
بباهم هناك وهى بالنسبة لنا ستكون تأكيدا على التميز .

حسين : لكن هذه العلامة عزيزة عندي فى الدنيا ، يا ليت شفتى
أن تصل إلى جبهتى لكى أقبل هذه العلامة ويتسلى بها قلبى ، فلا
أن تكون هناك علامة لقبلة أحد آخر على جبهتى سوى لزمرد ولو
على قبلة فتكون فقط من شفتيها الياقوتية .

بوسمى أنا الفقير لورق الحناء لكى أقبل كف القدم ذلك بالرسالة

لكن للأسف فكما أن زمرد فى قلبى ولا أستطيع أن أنالها هكذا فإن علامة قبلتها معى فى كل وقت لكن ليس من فرصة أستطيع أن أوصل بها شفتى المشتاقتين إلى هناك .

الشيخ : أبعد عنك الآن الأفكار الشاعرية ، واستعد لتقبيل أقدام أمام القيامة .

حسين : لبيك ، ولكن أيها الوادى الأيمن ردى لماذا تطلقون عليه أمام القيامة؟

الشيخ : هذا أيضا رمز من الرموز الربانية ، ولعلك لا تعلم أيضا أسماء أولئك الأئمة حتى الآن ، والذين يعدون أشعة النور الأزلَى ويظهرون فى أجساد مختلفة ، وفى أوقات مختلفة ويظل هؤلاء دائما الناسوت الأكبر ، وهو نفس النور الذى كان يشع فى الأجساد الطاهرة لسيدنا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ثم ظهر فى النهاية فى جسد سيدنا على المرتضى ، ولأن النبوة قد خُتِمت الآن لهذا فإن هذه الروح الواحدة بدأت تتقل فى الأجساد المختلفة ثم سرت فى أجساد الحسين وعلى زين العابدين ومحمد باقر عليهم السلام ، وهى ذلك النور الذى حل فى الجسد المنير لحضرة جعفر الصادق وهو حى حتى تركت صورتها الجسدية وحلت أولاً فى إسماعيل ثم فى محمد المكنوم بن إسماعيل وفى غضون عدة أيام ظل هذا النور يشع فى الخفاء فى الأجساد الطاهرة بالترتيب الإمام منصور بن محمد المكنوم وجعفر الصادق وحبيب بن جعفر ، وظلت الإمامة مخفية . . فى ذلك الوقت عن إسماعيل .

والآن فإن هذا النور ظهر فجأة في ذات عبيد الله مهدي ، وأظهر أنواره الكاملة ، وصارت الإمامة ظاهرة ، وظل هذا النور من بعده يتبدل في الأجساد الظاهرة المختلفة باستمرار وبشكل علني ، فأعلى درجات اللاهوت الأكبر توجد في أجساد القائم بأمر الله ومنه إلى منصور ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله فالحاكم بأمر الله ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المنتصر بالله حيث تشع من جسده ومن بعده إلى نزار ثم حسن بن محمد عليه السلام ثم حلت هذه الأنوار الأزلية في الحال عند ركن الدين خورشاه حاكم قلعة الموت وهو إمام قائم قيامة البرزخ وهو تجلي اللاهوت والناسوت الذي ظل يصدر عن الأجساد المختلفة للإمامة والنبوة .

حسين : (في حيرة) وهو نفسه الذي بايعته على يديه في عالم اللاهوت .

الشيخ : هو نفسه .

حسين : ولكنك تقول إنه هو حاكم التمنت^(١) .

الشيخ : بلا شك لكن هذه العلائق الدنيوية وتجرده ونورانيته قد نالها من عالم الإلهام الغيبي ، ولا يمكن له أن يخدع ، وهذا هو الفرق بين الإمام الديني وعامة الناس ، فالشيء الذي لا نستطيع أن نحصل عليه بالعمل والرياضة الروحية يمكن أن يحصل عليه كاملاً بالفطرة ، ولهذا يطلقون عليه بروخ العالمين .

حسين : ولماذا يدعى إمام القيامة؟

(١) هي قلعة الموت وأحياناً ترد هكذا في النص وهي خطأ وقع فيه النساخ .
(المترجم) .

الشيخ : (بعد أن هدأ قليلاً) نعم أنا لن أذكر لك سره الآن ، ففي عهد الإمامين المستنصر وتزار كان يوجد في الأنوار الأزلية شمع مضئ جديد وغير عادي ، ويقال إن هذا الشمع هو انعكاس لنور الإمامة الجديدة والقديمة ، لكنه انعكاس كامل وضخم إلى الحد الذي أضاء بتجلياته جميع ممالك الأرض ، ومنه كان مصباح نور المراد الذي سطع في الجسم الصافي لحسن بن الصباح ، ولقب إمام القيامة كان من شعاع مرآة النور الإلهي ، والتي وصلت فجأة من حدود الدرجات العلى وأرض النور ، فمثل هذه الطرق الصحيحة التي تنشأ في الإنسان ويحصل بها أقل الناس على الكمال ، والتي كانت في العهود القديمة مقصورة على الأنبياء والأئمة ؛ فمن قبل لم يكن أحد يستطيع أن يفكر في الذهاب إلى الفردوس الأعلى ، لكن الآن وبعد ظهور الشعاع الإلهي الأسمى عرضت لي هذه الحالة وهي أنني أغمض عيني وفي لحظة تجدني أتره في عالم النور ، ومن الممكن لك أنت ومئات المؤمنين أن تذهبوا إلى هذه الجنة وتتمتعوا بمعانقة الحور ، إن معنى القيامة عند أهل الظاهر هو ذلك الوقت الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا ، لكن القيامة عند أهل الحقيقة والصوفية هي فقط هذه الحالة أو اسم ذلك الوقت الذي ينال فيه المخلوق القرب من الخالق أو شعاع النور ، ولأن حسن الصباح نال درجة القرب هذه في عهده ؛ لذا يطلق عليه إمام القيامة أي الإمامة التي عن طريقها يقترب المخلوق من الخالق ، ونتيجة لهذا الجوار فلإنه في غضون عدة أيام ؛ فإن الإمام على ذكره السلام هو صاحب الإمامة القديمة التي كانت تثقل جيلاً بعد جيل من سيدنا على المرتضى ، وهو أيضاً الإمامة التي كان مصباحها يضئ في البداية في نفس حسن بن الصباح .

من بغداد ثم وصل إلى منطقة رودبار ، وكان في هذا السفر يتعرف على من هم على مذهبه دون عناء من علامة قبيلات الحور ؛ حيث يجدهم في كل مدينة وقرية ، وكانوا يخلصون له النية عندما يعترضهم ، وكان في قرية ديلم شخص باطنى يُعرف من علامة جبهته قد أتى لتوه من جنة الفردوس ، فأخذ حسين إلى بيته بصفاء قلب وإخلاص عظيم ، حيث حل عليه حسين ضيفاً عدة أيام ، وكانت هناك صحبة من الناس في منزله ، فقد اجتمع جمع من الباطنية الذين كانوا قد طعموا من الجنة في خلال عام أو عامين ، وكانت صحبة هؤلاء الناس خالية من الغرياء وقاصرة على من هم على شاكلته فبدأوا يتذكرون الجنة فيما بينهم ، وفي أثناء الكلام قال أحدهم : " لكن ظلت لى أمنية في الجنة " .

الثانى : (بدهشة) وما هى؟

الأول : هناك أمر (بالجنة) يبدو فائق وخلاب حتى إنه يجعل القلب يتملص بلا سلطة ، لكن يعلم الله ما هذا الأمر؟ وقد حاولت آلاف المرات إلا أن الحورية الفاتنة لم تجب عن هذا الأمر .

الثانى : هذا موضع تعجب حقيقى ، فمثل هذا يجب ألا يكون فى الجنة فعندما يميل قلبك ناحية أية حورية ولم تلتفت إليك فإن جميع المتع سوف تذهب هباء حقا .

وبعد أن سمع هذا قال شخص ثالث فى الحقيقة : إن هناك بعض العيوب من هذا النوع تبدو للإنسان ، وكنت قد طرحت هذا الأمر على الشيخ الذى طمأننى بدوره بسهولة كبيرة ، حيث قال بحماس وحمية عظيمة وكأنه لا يزال يقول فى أذنى الآن: لقد ذهبت إلى عالم النور بعد

أن اصطحبت مع هيكلك المادى آلافا من الدنس ، ومن ثم آمل أن تنظر إلى الجنة بشكل مجرد وصافٍ مثلما تراها بعينك غير الماديتين ، فهذا فى حد ذاته عيبك وعجزك المادى ، ومن ثم يبدو لك هذا النور شائن وبه عيب .

الأول : وأنا هناك كنت قد سمعت بهذا أيضا أن هذه الحورية لم تحصل على هذا التجرد الذى حصل عليه الآخرون ، ولهذا لم تنقطع عنها التعلقات المادية كلية .

الثانى : لاشك فى أنه ربما يكون هذا هو السبب ؛ ففى البداية كان يوجد عيب شخصى فى هذه الحورية ثم نظرت إليها بعينيك الماديتين فتضاعف القبح .

حسين : (بقدر من الاهتمام) ألم تعلم اسم هذه الحورية؟

الأول : نعم علمت ، اسمها زمرد ، وأنا لن أنسى حوريتى التى كنت أستمتع بها فى حضنى ، وقد علمت أنها متعلقة بأحد الهياكل الترابية بحيث لا تلتفت ناحية أى من المتزهين فى الجنة .

وفى اليوم الثانى مضى حسين قدما بعد أن ودعهم ، وظل لعدة أيام واقفا على باب قلعة آلوت .

الباب السادس

المطروود الأزلى

مُنِعَ حسين على باب قلعة الموت ؛ لأنه لم يستطيع تقديم تصريح الدخول إليها ؛ لذا أرسل إلى المسئول عن القلعة بالرسالة التى كان قد كتبها له الشيخ على وجودى ثم قدم طلبا إلى ركن الدين خورشاه وكان إماما لجميع الباطنية فى تلك الأيام وكان حفيدا لعلى - على ذكره السلام - وكان خورشاه آنذاك فى عنقوان الشباب ، ولكن عندما يظهر الإمام فى عقيدة هؤلاء الناس يكون هو الإمام ، ولهذا لا يوجد أى فرق فى تقديسه ومهابته بسبب حداثة عمره ، ففى رأيهم أنه مادام حصل على منصب الإمامة فهو معصوم ويتساوى فى ذلك طفل فى السادسة من عمره مع عجوز فى السبعين من عمره ، وأحكام كل منهما واجبة التنفيذ على قدم المساواة ، وكان حسن ابن الصباح قد أسس هذا المذهب وهذه المملكة بعد جهود خارقة ، وقد انقضى عليها الآن مائة وخمسون عاما ، وبالرغم من الثورات الكبرى التى حدثت فى العالم إلا أن هذه الأسرة ما تزال تبسط سيطرتها ، وقد أضرب بمكانتها السياسية بعض الأبطال المغامرين والغزاة مرة

حين استبد بحسين اليأس فكر فى حيلة أخيرة وهى أن يطلب وظيفة ، وهكذا يصل إلى مقر الملكة ، وكان بعد إقامته فى قراقورم هذه الفترة قد نشأ له أصدقاء عدة فزكوه لديها حتى نال بصعوبة شرف رئاسة اصطبل الملكة ، بعد شهرين من تسلمه لهذه الوظيفة لم تسنح له الفرصة للقاءها بمفردها ، وفى النهاية عندما نهضت الملكة من فراشها الوثير ذات مرة فى الصباح الباكر ذاهبة إلى الحمام كانت بمفردها تماما فقابلها وصافحها بعد أن تعلم ، وبعد أن رأت بلغان خاتون أن حسين يعترض طريقها بشكل غير عادى ، توقفت وسألته : لماذا؟

حسين(بعد أن قبل الأرض أمامها) : الجميع بخير ، لكننى أحمل للملكة رسالة حصلت عليها منذ أشهر ، ومنذ ذلك الوقت أقيم فى قراقورم ولم يكن مسموحا لى تقديم هذه الرسالة بدون أن تكونى بمفردك ، وبسبب ذلك كان هذا الحد من التأخير ، واضطرت أن أقبل وظيفة الملكة ، وبعد سلسلة من الفشل الذريع ولحسن حظى سنحت لى الفرصة الآن لتقديم هذه الرسالة ، بعد أن قال هذا أخرج رسالة زمرد وأعطائها للملكة .

لم تكن الملكة بلغان خاتون مثل نساء التتار بل كانت عكس ذلك كذلك من أمراء التتار ، ملكة على قدر كبير من التعليم والتحضر والثقافة فكانت تتحدث الفارسية بطلاقة ، ليس هذا فقط بل كانت تستطيع أن تنقد شعر شعراء فارس بشكل جيد وتفهم أصعب ما فى الفارسية وأبلغها على أكمل وجه ، فأخذت الرسالة ونظرت فيها بتمعن ، وكان غلاف الرسالة بسيطا وبلا رخارف فنظرت إلى حسين بتعجب وسألته : من الذى أرسل هذه الرسالة؟

أتعلم ماذا كتب فى هذه الرسالة؟
حسين: لا ، لا أعلم حرفا مما جاء فيها.
جعلت هذه الإجابة بلغان خاتون تحقق فى حسين وتنظر إليه بعين
الشك ثم سألت:
- هل أنت باطنى؟
حسين: (فى رهبة): نعم.
بلغان خاتون: هل تزهدت فى الجنة؟
حسين: رأيتها مرة واحدة وأطمع فى رؤيتها مرة ثانية.
بلغان خاتون: حسنا، سوف تحقق هذه الرغبة، ولكن أخبرنى هل
تعد من القدائين كذلك.
حسين: لا شك فى ذلك.
حملقت بلغان خاتون فى حين بعد أن سمعت هذه الإجابة ثم
قالت: كم من الأنفس قتلت؟
حسين: فقط شخصين ، لكنهما من الكبار ، وقد ندمت على
قتلهما.
بلغان خاتون: ألم تخف أثناء أعمال هذا الخنجر فيهما.
حسين: حدث ذلك، لكننى لم أكن أستطيع أن أحيى عن أمر
المرشد.

الباب السابع

سفر بلغان خاتون

بعد أسبوع من ذلك اليوم الذى سلم فيه حسين رسالة حبيبته زمرد ساكنة اللجنة إلى بلغان خاتون، ذهبت الأميرة التتية إلى أخيها منقوخان فى الصباح حين كان فى بلاطه عدد من زعماء الأسر التتية وساداتها فجلست صامته وخائفة لم تنطق شيئاً أمامهم لفترة من الوقت، فقال منقوخان بعد أن رأى الأخت صامته:

لماذا هذا الصمت غير العادى يا أختاه؟

أحد رجال البلاط: إن الأميرة لم تنس الحزن على والدتها حتى الآن.
منقوخان: بنخ ، بنخ يا بلغان ، دعى عنك هذا الحزن الآن، فإن بقاءك حتى هذه الأيام فى الألم والحزن يتعارض مع طبيعتنا وشجاعتنا القومية.

بلغان خاتون: حقاً يا أخى، نسيت هذا الحزن (وبعد قليل من الصمت): حسناً ستمضى الأمور ، لكتنى حضرت الآن لأنجز عملاً مهماً.

بلغان خاتون: بعد أن أمحو هذا المذهب من الدنيا، أريد التأكيد على أن النساء أيضا يتميزن بالشجاعة مثل الرجال فلو أعطين الفرصة فإنهن لن يكن أقل من الرجال فى أى أمر ، والآن أنت تدرك هل الحرب هناك ضرورية أم لا؟

منقوخان: لا شك أنها ضرورية، ولا يمكن النجاح بدونها، يبقى بعد ذلك شجاعة النساء فأنا أوافق على أن النساء يتفوقن على الرجال فى الحكم، فهن اللواتى أعيتن شجعان الدنيا بأسرها ودمرن عروش الملوك العظام والأبطال الكبار ، وعليه فإن المرأة هى التى تحكم ولكن أسلحة المرأة أسلحة أخرى، فهى لا تحارب بالخنجر والسيف ولا بالسهم والنصل، بل تنصرف على أعدائها بخنجر الرموش وسيف الحجاب ونصل الدلال وسهم النظر، إلا أن أسلحة المرأة هذه لا يمكن أن تكون مفيدة فى ميدان الحرب، ففى ذلك الميدان الذى تريدان الذهاب إليه يكون النصر فى مثل هذه الميادين باسم أسلحة الرجال ، طأطأت بلغان خاتون رأسها خجلى من هذه الإجابة ، ولكنها أبدت صلابة وقوة من خلال نظراتها وقالت: "يا أخى لا تظن الأمر بهذا الشكل فإننى ساحارب هكذا بفدائية وشجاعة كما يجب أن تحارب أى فتاة تترية شجاعة.

منقوخان: أنا أعرف ذلك ، ولكن مادمتنا موجودين أحياء فلا يمكن أن نشق عليك أيتها الجميلة بوضع قدمك فى ميدان المعركة، وفى نهاية الأمر ما هو أهمية ذهابك؟

بلغان خاتون: هذه فقط معركتى وهى واجب ، وأنا الآن أريد الآن تحمل المسئولية.

منقو خان: (بعد أن قرأ الرسالة) فى ٢٧ من رمضان.

بلغان خاتون: الله يعلم ما الهدف من تحديد هذا التاريخ ، إذن ينبغي على الرحيل.

منقو خان: لابد أن فيه أمر جلل ، وهذا أيضا لم يدر فى خلدى فماذا سيحدث بعد وصولك إلى هذا الممر الجبلى ، من الممكن أن تكون هذه المرأة التى قالت بأنها حورية تخدعك .

بلغان خاتون: أرجو ألا تكون رسالتها ودعوتها لى خدعة ، ومع هذا ومن جانب الاحتياط عقدت العزم على اصطحاب معى قليل من الجنود ، وأنت تعلم أنتى قمت بالاحتياطات اللازمة من أجل سلامتى ، نعم لقد دعتنى زمرد يوم ٢٧ رمضان ، فأى تاريخ اليوم؟

منقو خان: عشرون من جمادى الأول يتبقى أربعة أشهر تقريبا لن يستغرق الطريق أقل من ثلاثة أشهر وإذا وصلت سريعا فلتقضى فى موضع ما فى الطريق ، أما عن الذهاب فينبغي الرحيل غدا . بعد ذلك فكر منقو خان قليلاً وقال : "حسنا لقد جاءتنى فكرة جيدة ، فلتبقى يارمرد لمدة يوم أو يومين وفى اليوم الرابع يسير هولاكو بالمدد بجيش جرار قوامه أربعون ألفا من الجنود ، وسوف يصطحبه طوبى خان وتكونى معه أيضا ، فهؤلاء الجنود سيذهبون إلى حيث تتجهين ، بل سيتقدمون عليك ، فقد استولى هولاكو خان على عرش الديلم وهو الآن يتعقبه وبعد وصول هذا الجيش سوف يقصد أرض العراق ويرغب كذلك فى عقاب خليفة بغداد على غروره وصلفه .

بلغان خاتون: إذا كان الأمر مجرد يوم أو يومين فسوف أبقى .

"امشوا هكذا حتى لا يعلم أحد أثار الأقدام" ، وطبقا لأمر الأميرة كان الناس يخفون الوطء بقدر الإمكان ؛ كان الغار معتما تماما من الداخل فيتلمس الجميع الطريق بالأيدى وساروا وهم يتجنبون التصادم فى كلا الجانبين وبعد خمسة عشرة أو عشرين دقيقة لاح ضوء من بعيد فاتضح أن فتحة الغار من هذا الجانب ، وفى النهاية خرجت بلغان خاتون من هذا الغار ، لكنها بعد أن خرجت من الغار اتضح لها أن هذا الموضع لا يقل وحشة ، حيث كانت هناك غابة كثيفة متشابكة الأشجار ؛ فكان ضوء الشمس يصل بصعوبة إلى الأرض.

وبمجرد أن وصلت الأميرة إلى هذه الغابة خرجت ناحية اليسار وكان وجهتها الآن ناحية الغرب فمضت للأمام باستمرار وتعثرت فى الأشجار والأشواك المتشابكة ، وكان المصاحبون لها قد اضطربوا بعد أن رأوا صعوبة فى عبور هذا الطريق ، وكانوا فى حيرة من أمرهم. وفى النهاية انتهت هذه الغابة فجأة عند أحد الجبال وعندما وصلت الأميرة انحرفت ناحية اليمين وسارت بمحاذاة الجبل حتى نهايته وعند موضع ما لاحظت الجبل وكأنه قد تصدع وانشق بسبب صدمة مفاجئة ، وظهر فى وسطه ممر طويل وضيق لا يسمح بمرور أكثر من شخص.

نظرت بلغان خاتون إلى هذا الممر بتمعن ثم جالت بنظرها فى جوفه ، وبعد أن اطمأن قلبها ولجت فى هذا الممر ، ولكنها قبل الدخول فيه مالت على أذن أحد الجنود المصاحبين لها وقالت شيئا ما فقفل راجعا من فوره. ودلفت الأميرة مع حسين والشاب الذى تبقى فى الممر فعثرت على شباك فى "صرة" داخل الممر ففتحتها فرأت زوجا من الملابس النسائية وزوجين من الملابس الرجالي لقرويين ورعاة البقر فأعطت الأميرة الملابس لحسين

حسين ينظر إلى هذا المكان بدهشة بعد أن جال فيه ببصره وبعد أن سمع هذه الكلمة على لسان الأميرة قال: "إتنى أعلم أنها هي الفردوس الأعلى ، ولكن أنى لى أن أقول ذلك؟" .

بلغان خاتون: الآن انظر إلى حوريتك ، ومن الضروري أن تبدو لك هذه الحديقة جنة ، ولكن انظر بتمعن هل هذه هي الفردوس الأعلى الذى تزهرت فيها " ، وقد ابتسمت الأميرة قليلا بعد أن قالت هذا .

حسين: تبدو من هذا المكان هي بعينها ، يا إلهى هل هذا علم أم حلم؟ انظرى هناك ، فإن الطيور تصدر نفس النغمات "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" (١) .

بلغان خاتون: ما معناها؟

حسين: إن الله جل شأنه وعد فى القرآن الكريم أنه سيرحب بالعباد (المؤمنين) بهذه الكلمات .

نطق حسين بهذه الإجابة بلسانه ، لكن الحيرة كانت تستولى على قلبه وعقله وعينه ساعة بعد ساعة وهو ينظر إلى كل شيء مضطربا ويردد مرارا هل صعدت إلى السماء أم هبط الفردوس الأعلى إلى أسفل؟ فهى الحديقة بعينها التى تحولت وتزهت فيها مع زمرد .

بلغان خاتون: لقد وصلت إلى الفردوس الأعلى ، فاطمئن الآن وسوف أقابلك بزمرد .

(١) هكذا فى الأصل .

بعد وصول حسين إلى اللجنة وتأكدته من ذلك وسماعه لهذه الجملة من الأميرة، خرّ على قدميها وبدأ يقول: "لقد أرشدتيني إلى هذا الطريق ولم يكن عندي أمل في مساعدة الشيخ على وجودي، إحسانك هذا سوف يظل منقوشا على قلبي للأبد.

بلغان خاتون: (بعد أن أخذت بيد حسين من على الأرض) اصبر وتجلد قليلاً، إن شرط لقاء زمرد أن تمشي معي في صمت ؛ لأنك باضطرابك هذا سوف تفسد الأمر. وبعد أن قالت الأميرة هذا أخرجت رسالة زمرد وقرأتها ثم اضطجبت معها رقيقها ومضت إلى ناحية في دقائق معدودة صارت بالقرب من القصور والأكواخ.

وكان حسين واقفاً في هذا الجو المبهر ينظر بنظرات الدهشة والذهول عن النفس، وفجأة جاءت امرأة جميلة وفاتنة أمام الأميرة ثم انحنت لتقبيل قدميها.

بلغان خاتون: من أنت؟ لكن نظر حسين وقع عليها فصاح في حماس وبلا وعى: زمرد، ثم جرى وعانقها.

زمرد : (بعد أن تنحت بحسين جانبا) اصبر قليلاً فلأني أريد أن أبدى الاعتراف بالفضل أمام الأميرة.

بلغان خاتون: أنت زمرد؟ قالت ذلك وعانقت زمرد وقالت: أين إحسانى يا أختاه؟ لا شك أننى أشكرك شكرا جزيلاً فلو لم تساعدتنى لما تخلصت من الحزن والألم أبدا .

زمرد: (بعد أن ابتسمت ويقلد من الندم) لكن أيتها الأميرة لقد كان فى ذلك مصلحة شخصية .

مباشرة إلى قصر حريم خورشاه ، والسدى يدخل فيه يدرك أنه وصل إلى قلعة الموت ، واليوم يوم العيد ، وفي هذا الوقت عادة لا يحضر أى شخص إلى الجنة ولا خورشاه نفسه ، ولهذا فإن جميع المقربين فى هذه المناطق وعلية القوم والرؤساء يأتون من بعيد لزيارة الإمام ، ويجتمع جمع كبير من أتباعهم فى القلعة ، ولهذا السبب استدعيتك فى ٢٧ رمضان ؛ لأنه من الضرورى أن تظل هذه الحديقة خالية من الأغيار فى هذا اليوم ، كما أن الفرصة لا تسنح لخورشاه نفسه بالمجيء هنا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ولو كانت فى وقت آخر فانه سيعرف بمجيئك إلى القلعة فى الحال .

بلغان خاتون: إذن الآن لا يعرف أحد خبر مجيئنا .

زمرد: لا على الإطلاق ، أولاً ليس هنا أى رجل ولو علم الحراس استعدادوا للحرب ، وربما تهرب أى امرأة وترحل ، ولكنتى اليوم فى الصباح أغلقت بوابة جسر المدينة بالقفل والمفتاح عندى ، ولهذا لا يستطيع أحد الهروب من القلعة ، ومن حسن الحظ أنه لا يمر أحد من هنا هذه الأيام .

بلغان خاتون: هذا أمر طيب تماما ، أتقولين اليوم عيد فيينا حماس السرور وضجيجه فى القلعة لا أحد يفكر فى شيء فسوف يتم هجومنا قبل الليل ، ولكنتى يا زمرد مترددة من هذا الأمر ؛ لأن الجيش الذى دعوته لنجدتى لا يعرف حتى الآن وفى رفقتى خمسمائة جندي فقط وربما لا يكفون .

زمرد: أنا أعلم أن خمسمائة شاب يمكنهم أن يستولوا على القلعة من هنا .

بلغان خاتون: ولكنى متأكدة أن المدد سيأتى لنا بالضرورة فيجب أن تمهلينى فقط حتى المساء.

زمرد: ما معنى المساء، إنك تستطيعين أن تظلى مختفية هنا حتى الغد، فلا تفكرى فى شىء ، عليك أن تخلصى للراحة حتى يحين الوقت فأنت متعبة وقد وجدت فرصة جيدة للاسترخاء، بعد ذلك سألت الأميرة: ولكن يا زمرد ما هى الحكمة فى هذه الملابس التى اقترحتها علىّ أنا والمرافقين لى؟

زمرد: أيتها الأميرة إن ملابسك هى نفسها ملابس الحور ، والتى يعتبرها الناس هنا ملابس الجنة ، وبسبب هذه الملابس لا يمكن لأحد أن يسيء الظن بك.

بلغان خاتون: ربما لهذا عندما رأتى حسين مرتدية هذه الملابس قال إنك تبدين مثل الحور، بعد أن سمعت زمرد هذه الجملة ضحكت كثيرا وقالت: ولكنه لم يقل لى أى شىء عن ملابسى.

بلغان خاتون: حسنا ، ولكنك لماذا اخترت مثل هذه الملابس غير المنسقة للرجال.

زمرد: لأن الرجال الذين يأتون إلى هنا هم بائعو اللبن بشكل عام، والذين يملأون الأنهار والأحواض هنا باللبن والخمر، فلو جاء أى رجل هنا مرتديا هذه الملابس فلن يفكر أحد (لن يخطر على بال أحد) أنه غريب.

بلغان خاتون: ولو لم يكن هذا وعلم أحد ما واتكشف السر قبل الموعد.

زمرد: لن يعلم أحد ؛ فأنت مقيمة هنا شوقا ، وفى يوم العيد لن تسنح الفرصة لأحد بالمجيء هنا.

بلغان خاتون: حسنا سوف أقيم هنا ، ولكن عليك أن تتزهيى فى الجنة قليلاً، وترينى كذلك الجسر والشارع حتى أعرف الطريق جيداً.

زمرد: تفضلى.

بعد هذا الاقتراح أخذ حسين والفتاتان الحسناتان فى التنزه بين القصور والحمائل وقد شاهدوا ربيع الحدائق والرياض إلى أن وصلوا عند شاطئ هذا النهر الكبير الذى عن طريقه يدخل الناس إلى الجنة بعد أن يركبوا فى سفينة ذهبية، وكان باب جسرهما الذهبى موصدا ففتحته زمرد ونزلت الفتاتان فى ساحة الوادى الثانى ، وكانت الورود ممتدة حتى الأفق البعيد ويمر من بينها شارع يتجه إلى قضاء مفتوح بعد مسافة غير بعيدة ثم يختفى فى أجمة أشجار ظليلة هائلة، وكان طريق قصر الحريم ناحية تلك الأشجار، وبعد هذه النزهة الممتعة عادت الأميرة وذهبت إلى قصر الفيروز الشاهق طبقاً لمشورة زمرد ، وظلت زمرد جالسة عندها زمناً طويلاً، وعندما رأت أن الأميرة بلغان خاتون أخرتها وتريد أن تستريح ؛ استأذنت منها وأغلقت الباب من الداخل وانصرفت ناحية قصرها.

الباب الثامن

إفشاء الأسرار

عاد الفتى حسين مندهشا فاقد الوعي بعد أن ترك القصر الدرى بناءً على اقتراح زمرد والأميرة وكان مضطرباً ، ينظر إلى كل شيء ويستفتى قلبه قائلاً هل هذا حقاً هو المكان الذى جاء إليه بمساعدة الإمام قائم القيامة؟ لكنه كان فى الملأ الأعلى وهذا على الأرض ولكن لماذا الشك؟ فزمرد نفسها موجودة أيضاً ولو أن هذه حديقة دنيوية فكيف جاءت هنا وقد كتبت لى بنفسها أنها فى الجنة ، وأنها تتزوّج فى الفردوس الأعلى وما فائدة الكذب فى النهاية؟ بعد ذلك اتجه خارج القصر وبدأ يتطلع بغیظ وأمعن النظر فى أنحاء الحديقة وفى أرجاء القصر، فرأى كل شيء على حاله كما رآه من قبل ؛ فقد كانت جدران القصور مرصعة بنفس الجواهر التى رآها من قبل كما كانت الخمائل بنفس لونها وصورتها، وكانت الشوارع والممرات ملونة وخلابة ، وكانت العروش والتيجان الذهبية والفضية على أبهتها السابقة، وكانت الأنهار تنساب بمياهها المتموجة ؛ نعم هناك نقص فى شيء واحد فقط هو أن الأغنية لم تكن تُسمع والمطرب لم يكن موجوداً، لكنه عندما سمع آيات الترحيب القرآنية نفسها على لسان

